رضوان علي الندوي

العز بن عبد السلام

دار الفكر بدمشق





أئمة الفكر الإسلامي

العز بن عبد السلام

(٥٧٧ - ٦٦٠ هـ)

« إمام نابغة في العلم ، قائد مخلص للمجتمع ، ناقد حرّ يهابه الملوك »

تأليف

رضوان علي الندوي

دار الفكر بدمشق

١٣٧٩ - ١٩٦٠

مطابع دار الفكر بدمشق

☎ ١١٠٤١

الإهداء

إلى الذي . . . .

حبب إلى نفسي :

قصص البطولة الإيمانية ، والمثل العليـــا للخير والصدق والاخلاص .

وضرب لي المثل :

في الأمانة العلمية ، والإفادة والبحث .

وغرس في نفسي :

حب الثقافة العربية الاسلامية . . .

إلى الداعية الباحث الاستاذ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي

أقدم باكورة عملي ، راجياً أن يتقبل ، مؤملًا أن أسير في سبيل العلم والبحث ، وانتاج ما ينفع ويفيد .

والله من وراء كل قصد ، وهو الهادي إلى كل رشاد .

رضوان علي الندوي



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم بقلم الدكتور
مصطفى السباعي
عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق سابقاً

مُني العالم الاسلامي في القرون الثلاثة : الخامس والسادس والسابع بسلسلة من الفتن الداخلية والحروب الخارجية ، وأهمها حروب الصليبيين والتتار ، مما أدى الى تضعضع الكيان السياسي الاسلامي وانتشار الفساد في مختلف فئات المجتمع . وأصاب المحيط العلمي رذاذ من ذلك الفساد والانهيار ، فسكت أكثر العلماء عن الجهر بالحق ، وسايروا الحاكمين رغبة أو رهبة ، واعتزل كثير منهم الحياة العامة تحت تأثير الدعوات الصوفية التي انتشرت بقوة في أنحاء العالم الاسلامي كله ، وكان أقصى أماني الصالحين منهم أن ينجوا بأنفسهم من الفساد ، ويسلموا من معايشة الشر والرضا بالمنكر .

في هذا الوسط المضطرب نشأ العالم العظيم « سلطان العلماء » عز الدين بن عبد السلام ، فكان وجوده نسمة من نسمات الرجاء تهب على قلوب اليائسين ، وعزمة من عزمات الايمان تنبعث في أوساط المتخاذلين ، وومضة من ومضات النور تضيء الطريق للمدلجين في

دياجير الظلام ، وسوطاً من سياط الحق يلهب الله به ظهور المتكبرين والمتجبرين والظالمين .

إن العز بن عبد السلام من أعظم علماء الاسلام الذين تهزني دراسة آثارهم وسيرتهم هزاً عنيفاً ، ذلك لأنه شخصية فذة قد آتاه الله من العظمة ما لم يؤت عالماً غيره في عصره ، وأستطيع تلخيص مظاهر عظمته في هذه النواحي الثلاث :

أولاً — جرأته في الحق وشدته على المبطلين ، وإخلاصه النصح لله ولرسوله وللمسلمين إخلاصاً أورده المهالك ، ولكنه كان في نفسه أعظم من أن يستحضر الخوف من المهالك ، لقد كان يصور نفسه على حقيقتها قوله لابنه وقد هدده كبير الأمراء بالقتل لأنه أصدر العزم على بيعهم علناً أمام الجمهور : يا بني ! إن أباك أحقر من أن يقتل في سبيل الله !..

ولقد جهر بالحق مرة أمام سلطان مصر نجم الدين أيوب، وخاطبه باسمه المجرد والدولة كلها واقفة بين يديه في حفل استعراض عسكري كبير ، وتسامع تلاميذه بالخبر فلم يصدقوا ذلك ، وسأله أحدهم عن صحة الخبر ، فأكده الشيخ ، فقال له تلميذه : يا سيدي ! أما خفت السلطان ؟ فأجاب الشيخ على الفور : والله ، يا بني ! لقد استحضرت عظمة الله في نفسي فرأيت السلطان أمامي كالقط !..

هذا رجل عظيم !.. لا من الذين يستمدون عظمتهم من مقاييس

الدنيا الزائلة ، بل من الذين تنبع عظمتهم من حقائق الحياة الخالدة المتصلة بخالق الكون والحياة ، فأية عظمة تساوي هذه العظمة ؟ !

ثانياً – جهاده في سبيل الله وتحريضه الناس على قتال التتار ، وخوضه المعارك على كبر سنه وحاجة المسلمين اليه ، ولكن الرجل لم يكن يراعي سنه ولا حاجة المسلمين اليه ، بقدر ما كان يراعي واجبه وحاجته الى رضا الله عنه .

ثالثاً – غوصه العظيم على أسرار الشريعة ، وإحاطته بمقاصدها ، بل بمقصدها الأعظم وهو « رعاية مصالح العباد » . لقد وصل الى لب الشريعة وفقهها حين آمن بهذه الحقيقة ، فإذا بأحكام الشريعة تبدو له حبات في عقد منتظم منسجم ، وإذا هو يستذكرها في كتابه العظيم « قواعد الأحكام » استذكار الامام الفقيه الذي استمد علمه من لدن حكيم عليم ، فتبارك الذي علّم بالقلم ، علّم الانسان ما لم يعلم . .

تلك هي – في رأيي – أهم مظاهر عظمة الشيخ العز بن عبد السلام ، ولقد كانت واحدة منها كافية لأن تبوئه مكاناً علياً في قلوب معاصريه ، وتستأثر بحبهم والتفافهم حوله والتماسهم بركاته ، فكيف اذا كانت ثلاثتها قد اجتمعت فيه في عصره المضطرب الحائر ؟ !

ولقد كانت واحدة من عظماته الثلاث كافية لتخليده في رحاب

العظماء الخالدين من رجال الدنيا والدين ، فكيف وقد كانت له كلها لا تحيف واحدة منها على الأخرى ، ولا يكسف نور واحدة منها نور الأخرى ؟ !

أعود فأقول إني من المعجبين بالشيخ العز بن عبد السلام ، المرددين لنوادره في الجرأة والشجاعة والجهر بالحق والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مع علم واسع وفهم دقيق لأسرار الشرع ، وروحانية مشرقة متصلة بالله تلمسها في كل سطر من سطور مؤلفاته العلمية وخاصة كتابه « قواعد الأحكام » .

وكنت مصمماً أن أتفرغ يوماً ما لدراسة هذا العالم العظيم دراسة تحليلية دقيقة وإخراج كتبه للناس إخراجاً فنياً حديثاً ، ولكن زحمة الحياة ومشاغل العلم التي يأخذ بعضها بتلابيب بعض حالت دون تحقيق هذه الأمنية فيما مضى من العمر ، وكأن القدر كان قد ادخر شرف الكتابة عن هذا العالم العظيم ، لأخينا النجيب السيد رضوان علي الندوي إذ جعل موضوع رسالته لأخذ إجازة كلية الشريعة بجامعة دمشق هو هذا الموضوع نفسه ، وقام بجهود مشكورة في البحث والتعقيب يلمسها قارىء بحثه هذا ، وحسبه أنه أول من أفرد لترجمة هذا الامام العظيم كتاباً خاصاً به ، من حيث اكتفى المؤرخون السابقون بكتابة بضعة أسطر أو صفحات هي كل ما كتبوه في ترجمته رضوان الله عليه .

واني لأسأل الله أن يجزل مثوبة المؤلف ويوفقه لمتابعة البحث والدراسة عن هذا الشيخ العظيم وآثاره وآرائه حتى يُخرج للناس كتاباً مستوفى يليق بعظمة هـذا الامام ومكانته بين الخالدين .

دمشق { ١٤ من ذي القعدة ١٣٧٩
في { ٩ من ايار (مايو) ١٩٦٠

مصطفى السباعي
رئيس لجنة موسوعة الفقه الاسلامي
ورئيس قسم الفقه الاسلامي ومذاهبه
بكلية الشريعة في جامعة دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم



تمهيد

سمعت أول ما سمعت اسم الرجل الذي أريد أن أدرسه ، في بعض المحاضرات منذ سنوات طويلة لأحد الاساتذة في الهند[1]، وذلك في معرض الكلام عن قوة الإيمان والجرأة في الحق ، وعدم الخوف إلا من الله . فمثّل به في ذلك ، وذكر كيف أنه انتقد سلطان دمشق – لحادثة جرت – على منبر الجامع . فارتسمت في مخيلتي منذ ذلك الوقت صورة للعزّ بن عبد السلام وهو يتحدى ملك زمانه فينكر عليه سوء صنيعه في حق الأمة وحق الاسلام ، ويشنع عليه أمام الملأ في يوم مشهود على منكره الذي أتاه بتحالفه مع الافرنج الصليبيين ، أعداء الاسلام . صورة عالم تقي جرىء يتحدى – في الحق – ملكاً مستبداً طاغية ، صورة حق ضعيف قوي أمام باطل قوي ضعيف .

ويالها من صورة حلوة أخاذة، صورة الاتقياء والشهداء والابرار،

---

(١) هو الاستاذ الداعية السيد ابو الحسن علي الحسني الندوي حفظه الله .

فكأن الرجل حلقة في السلسلة التي بدأت في الاسلام بسيدنا الحسين ، ثم تتابعت حلقاتها بسعيد بن جبير وأقرانه ، فالامام أبي حنيفة ، والامام مالك ، والامام أحمد بن حنبل ، فشيخنا عز الدين ، وبعده الامام ابن تيمية ، فالشيخ أحمد السرهندي[1]، وهكذا ، وكأنهم لآلي من عقد يزيد اللاحق منها السابق بهاءاً وتألقاً ، وهم الذين أخبر عنهم الصادق المصدوق بقوله : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين ، لا يضرهم من خذلهم » .

وهذه هي أبرز ناحية لشخصية عز الدين وأشهرها بين الناس ، وبتعبير آخر الجانب العملي الاجتماعي لها . وهناك جانب لشخصيته آخر مشرق معروف بين الدارسين يكاد يكون فريداً في بابه مدى العصر الذي عاشه والذي بعده من بعض الوجوه، وهو ملكته الاصيلة في فهم الشريعة وروحها ومقاصدها فهماً راسخاً شاملاً عقلياً دقيقاً مبتكراً بعض الابتكار ، ويظهر ذلك جلياً لمن يطلع على آرائه في أصول الشريعة الاسلامية في كتابه « قواعد الاحكام في مصالح الأنام » . وهو من السابقين الأول في حركة «التقعيد» في الفقه الاسلامي وتطويره ، ولميزته هذه الاجتهادية البناءة أنطق ألسنة مترجميه

---

(١) احمد بن عبد الاحد السرهندي ، احد المجددين في الاسلام ، صاحب الطريقة المعروفة في السلوك . انكر على الامبراطور المغولي القوي جلال الدين اكبر ميله الى وثنية الهند ، وعداوته للاسلام ، فتعرض لمحنة الحبس والايذاء .

الكبار أمثال الذهبي، وابن كثير يقول انه « بلغ رتبة الاجتهاد » .

وهي ناحية من شخصيته العلمية ذات شأن كبير تحتاج الى دراسة خاصة وبحث مستقل ، وكم كنت أود أن أتوسع في درس هذا الجانب والكشف عنه ، ولكن ضيق مجال البحث منعني من هـذه المحاولة ، وسوف ألمّ به إلماماً .

ولئلا أترك جانباً من حياة الرجل غامضاً غير مدروس وأقدم صورة له متكاملة متناسقة رجعت الى جميع ما أمكنني من المصادر ، ولقيت عناءً كبيراً في الوصول الى بعض الجوانب، ثم إيجاد التسلسل والترابط بين مجريات حياته ، وحرصت على أن أقدم أدق التفاصيل من حياته ما أمكنني ، وكم تعبت في البحث عن نقطـــة غامضة ، أو خيط للموضوع مجهول ، ثم عرض سيرته مرتبـــة في ترتيب زمني متسق .

ومن لاحظ طريقة المترجمين القدامى في اقتضـــاب ترجمته والتكرار الوارد عندهم قدّر مجهودي ومبلغ نصبي. ولابد أن أسجل هنا أن اقتصار أكثر المؤرخين على بضعة أسطر في ترجمته وعدم تنوع المعلومات عن حياته ، ثبّطني في أول الامر ، وكدت أن اعدل عن الموضوع في يأس وخيبة ، ولكنني مرة أخري التفت الى المصـادر ، ومضيت في التنقيب حتى استقر عزمي على الكتابة . وأذكر أن الاستاذ المشرف قال لي ، وأنا في البحث عن المصـــادر ، « يكفيك

ما رجعت اليه من المراجع وخذ في الكتابة ، لان المستوى المطلوب لنيل الاجازة (ليسانس) كان يكفيه ذلك القدر من البحث. ولكنني ما جعلت غايتي مجرد نيل الاجازة ، بل بذلت كل جهدي لأقدم دراسة عن الرجل تليق بمكانته العظيمة ، وما بدأت في الكتابة إلا بعدما أشبعت نهمي من البحث والمطالعة والتنقيب ، فكان من تقدير الاستاذ المشرف ان قدّر له درجة « الامتياز » عند تقديمي إياه الى الكلية ، ونوّه بجهدي وتوفيقي في عملي .

وبعد فحسبي أن أردّ على دمشق جميل ضيافتها لي ، فأقدم أول كتاب عن رجل دمشق ، ونابغة من نوابغها ، وأحد الخالدين الذين زيّنوا تربتها وجمّلوا تاريخ الاسلام . ويزداد سروري أن يُنشر هذا الكتاب قبيل مغادرتي لدمشق . ولأصحاب دار الفكر ، وأخص بالذكر صديقي الاستاذ عدنان سالم ، وافر شكري وجميل اعترافي الذين قدّروا عملي وتولوا نشره ، وهكذا ساهموا معي في إحياء ذكرى علم من أعلام الشام كاد الناس أن ينسوه .

وأقدم خالص شكري وعظيم تقديري لاستاذي البحاثة الدكتور يوسف العش الذي تفضل بالاشراف على اطروحتي ، وأولاني كل عناية وتوجيه وإرشاد . ولأستاذي الجليل الدكتور مصطفى السباعي ، عميد كلية الشريعة سابقاً ، جزيل شكري على ما دلني على بعض المصادر حول حركة التقعيد في الفقه الاسلامي ،

وعظيم شكري لكل من تقدم إليّ ، بمشورة ومساعدة .

والله أسأل أن يتقبل جهدي المتواضع وينفع به ، ويهديني دائماً الى نافع العمل ، وهو خير الهادي ونعم النصير .

دمشق في ١٠ ذي القعدة ١٣٧٩

الموافق ١٠ ايار (مايو) ١٩٦٠

رضوان علي الندوي

* * *

البحث عن المصادر ومناقشتها

لم يعالج أحد من الباحثين المحدثين شخصية عز الدين بن عبدالسلام درساً وبحثاً ، ونجد بعض لمحات عنها هنا وهناك في كتابات الادباء المعاصرين أو الراحلين منذ قريب ، وهؤلاء لم يتعرضوا إلا لناحية لشخصيته معينة بالذات ، وهي جرأته المتناهية في انتقاد بعض السلاطين والامراء والصدع بالحق بدون خوف ووجل ، وتنفيذ حكم الشرع الاسلامي في بعض حالات غريبة طريفة .

ومن بين هؤلاء المحدثين المرحوم الشيخ عبد القادر المغربي الذي عالج سيرة الشيخ من تلك الوجهة في حوالي ثلاث صفحات قصار (٥٥ — ٥٧) ، مقارناً بين العز وبين ابن خلدون في نفاذ كلمتهما وجلالة شأنهما في بلاطات الملوك . والمرحوم مصطفى صادق الرافعي أديب العربية ، وتحدث عن هذا الجانب نفسه في الجزء الثالث من كتابه « وحي القلم » (٥٨—٦٦) في مقالة بعنوان « أمراء للبيع ». ثم تناول الاديب الكبير الاستاذ علي الطنطاوي ناحية الجرأة والصلابة نفسها في كتابه الجديد « رجال من التاريخ » بعنوان « شيخ من دمشق » (٢٢٣—٢٣٣) . وتحدث الشيخ القاضي محمود بن عرنوس

المصري في كتابه « تاريخ القضاء في الاســـلام » عن بعض ميزات الشيخ العز في الحكم والقضاء ، وذكر ترجمة له قصيرة (١٩٢ – ١٩٣) .

ومن أوسعهم معالجة لسيرته الاستاذ محمود رزق سليم ، الاستاذ بالجامعة الازهرية ، في كتابه « عصر سلاطين المماليك وانتاجه العلمي والادبي » فعقد ترجمة ضافية للشيخ في حوالي عشر صفحات ، ثم تحدث عن تصوفه ونقل مقتطفات من بعض رسائل العز الصوفية المطبوعة بمصر في حوالي تسع صفحات ، من القسم الثاني للجزء الاول (١٧٦–١٩٥) ونناقشه في آخر هذا الموضوع .

وعلى كل حال لا يمكن أن نطلق على هذه المحاولات اسم الدراسة والبحث بحال من الاحوال ، وبالأحرى هي إما مواضيع أدبية توجيهية ، أو تراجم قصيرة مسرودة . فأقدمنا على دراسة الرجل وتقديم بحث عن شخصيته بكر شامل .

ورجعنا الى جميع ما وصلت اليه يدنا من المصادر لنملأ الفراغ الملموس في كثير من جوانب حياته ، ونظفر بالاجزاء التي نستطيع بها اكمال صورة الرجل ، وتقديمها كامل الاطراف ، حسن التنسيق ، موحيا .

فاذا وجدنا – في تنقيبنا هذا – شيئاً جديراً بالنفع لم نأخذه على الاطلاق بغير عرض ومقارنة ، فأدى بنا ذلك الى الوقوف على بعض

الاخطاء والتساهلات والتناقضـــات فيما يذكر من أخبار الشيخ في تلك المصادر ، وربما مرجع ذلك منهج كتب التراجم المألوف في العصور السابقة بصورة عامة ، من جمع معلومات شتيتة ، وسرد آراء متفرقة عن الرجال مرسلة غير مدروسة ، وواجبنا أن نعذرهم لعدم إمكان استيعاب التفاصيل الدقيقة بترتيب وانسجام في مثل تلك المؤلفات الشاملة ، لان موضوعها دراسات مستقلة،وتوجد لدى القدماء في كثير من الاحيان .

وفي ضوء تلك المقارنة والعرض أمكننا ان نصل الى تكوين الرأي عن بعض هـــذه المصادر ، ومقدار اعتمادنا عليها في دراستنا لعز الدين . وهاكم ما اجملناه من القول :

السبكي : تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (المتوفى عام ٧٧١ هـ) .

نجد أوسع مصدر بالاطلاق ، وأوثقها ــ بتحفظ ــ عن العزّ بن عبد السلام في كتابه الجليل طبقـات الشـــافعية الكبرى الجزء الخامس منه .

أوسعها ، لانه ذكر فيه ترجمة الشيخ بتفصيل لم يرد عند أحد . وجمع كل ما يتصل به من حوادث ووقائع . وضمنه رسالة عز الدين

في عقيدته الاشعرية التي كتبها في فتنة الحنابلة ، وكل ذلك في حوالي ثلاثين صحيفة (٨٠–١٠٧) .

وأوثقها ، لانه نقل كثيراً من تلك الاخبار عن ولد لعز الدين (واسمه شرف الدين عبد اللطيف)[١] من رسالة كتبها عن حياة أبيه ، كما صرح بذلك[٢] . ولكن أكثر ما جاء في هــذه الرسالة يتعلق بفتنة الحنابلة ضد الشيـخ والمراســلات التي جرت بين العزّ والملك الاشرف . وفيها فتياه في العقيدة في سبع صفحات ، والسبكي بنقله هذه الرسالة القصيرة أحسن الينا ، إذ حفظ لنا كثيراً من أخبار الشيـخ في الامور الجزئية للحيــاة وبصورة خاصة ما يتصـل بفتنة الحنابلة وما جرى فيها للعزّ من متاعب ومصاعب بتفصيل دقيق نجد المصادر الاخرى قاصرة عنه ، اللهم إلا إشــارة عابرة من الذهبي في تاريخه الاوسط .

ويكاد السبكي يكون مصــدراً لجميـع الذين كتبوا بعـده عن الشيـخ كالكتبي ، وابن العماد الحنبلي ، وطاش كبرى زاده ، واليافعي وغيرهم .

أما التحفظ الذي اشترطناه في الاخذ بما ورد لديه ، فللأمور الآتية :

---

(١) انظر ترجمته في طبقات السبكي : ١٣١/٥

(٢) نفس المصدر : ١٠٢/٥

أولاً — لما نجد عنده من غلبة حسن الظن على طريقـة مترجمي الصوفية ، والتعصب لاهل مذهبه . شأن كثير من أصحـاب التراجم في المذاهب . ونرى مثال ذلك عند السبكي في غير ترجمة الشيـخ العز ؛ فنسب مثلاً الى شيـخ الاســلام الذهبي[١] ازراءه بأهل السنـة من الاشعرية ، وميله الشديد الى الحنابلة ، فكشف عن تعصبـه لعقيدته الاشعرية وشيخ طريقة المذهب الامام الاشعري . وكذلك تساهل في ذكر بعض الحوادث ، فعدها من كراماته .

ثانياً — لما لمسنا عنده من عدم ذكر تواريخ الحوادث المهمة دائماً . كما نرى ذلك في ذكر فتنة الحنابلة ضده ، وخلافه مع الصـالح اسماعيل سلطان دمشق ، فهجرته من دمشق ، وبيعه لامراء الدولة المماليك في المزاد ، الخ . وكذلك نلاحظ انه عندما يذكر الخدمات التي تولاها الشيـخ كالتدريس والخطابة والقضـاء في دمشق والقاهرة لا يحدد تواريخها . وإذا ذكر بعضها فتنقصها الدقة والضبط ، بل ورد عنده التناقض عند ذكر تاريخ وفاة عز الدين ، اذ ذكر مرة ٩ جمادى الاولى وبعدها ١٠ جمادى الاولى[٢] .

ولذلك لم نستفد منه شيئاً في ترتيب مراحل حياة الشيخ ، ولجأنا في ذلك الى مراجع تاريخية أخرى ، كأبي شامة المقدسي ، وسبط ابن

---

(١) انظر ترجمته في طبقاته : ٥/٢١٧

(٢) المصدر نفسه : ١٠٢—١٠٣

الجوزي ، وابن تغري بردي ونحوهم ، فوجدنا عندهم طلبتنا من الضبط والتحديد للحوادث التي تهمنا في حياة العز .

ثالثاً — ويجب هذا التحفظ أيضاً لما يوجد في كتابه من أخطاء في أسماء الأعلام والامكنة ، وقد يكون مرجع ذلك التصحيف من الناسخ ، أو أغلاط مطبعية ؛ ومن ذلك ما نجد فيه من تسميته فخر الدين استـاذ الدار — الذي جرى معه للشيـخ حادث طريف معروف — عثمان (ص:٨١) واسمه الصحيـح « يوسف » كما ورد عند أبي شامة والمقريزي ، وورد عند السبكي نفسه اسمه الصحيـح في ترجمة فخر الدين هذا وأبيه[١] . وسيأتي معنا ان هذا التعيين نفسه خطأ إذ بطل الحادثة أخوه ، معين الدين حسن ، لا هو . ومن هـذا الخطأ في أسماء كل من ابن مسدي[٢] (تلميذ الشيـخ المعروف) ، ومفتي الحنفية جمال الدين الحصيري[٣] ، اذ ورد في طبقاته « ابن مسري »(ص:٨٠) والخضيري (ص:٩٦) .

فلأجل ذلك كله أخذنا بالحذر في النقل عنه ، وحاولنا جهدنا أن نبحث — فيما نأخذه منه من الاخبار — روايات أخرى مماثلة عن غيره

---

(١) انظر المصدر نفسه ص : ٤ و ١٥٢

(٢) ورد اسمه هكذا في تاريخ علماء بغداد في ترجمة العز ص: ١٠٤

(٣) ورد هكذا بالحاء المهملة عند ابن كثير وقال : هو من قرية يقـال لها حصير من معاملة بخارى : البداية والنهاية : ١٣/١٥٣ وكذا في الذيل على الروضتين في وفاته .

من أصحاب التراجم والمؤرخين ، ولكن لم يكن لنا بد من الاعتماد عليه ، أو بالاصح على الاخبار الواردة لديه نقلًا عن ولد عز الدين . وليس لنا أن نشك في كل ما أورده السبكي مباشرة أو بنقله عن رسالة ولد الشيـخ ، أو على لسان غيره من الرواة كوالده مثلًا ، وخاصة إذا لم نجد عند الآخرين ما يناقضها ، فان مثل هـذا الشك الديكارتي لا يسلم لنا شيئاً .

ابن رافع السلامي : ابو المعالي محمد (المتوفى سنة ٧٧٤هـ) وهو المصدر الثاني – ويأتي بعد السبكي مباشرة – في كتابه « تاريخ علماء بغداد » (المسمى بمنتخب المختار) ، وابن رافع وإن لم يتوسع توسع السبكي – لانه لم يعثر على مؤلف مبـــاشر عن حياة العزّ كما ظفر به الآخر – فقد أورد لنا ما أورده من أخبار عز الدين من ثقـــات الرواة والمتصلين بالشيـخ . وهو أشار أيضاً ، كالسبكي الى ما كتبه القاضي عز الدين الهكاري من ترجمة طويلة للشيـخ في جزء نحو كراسين[١] ولعله استفاد منه .

وهذا الكتاب مصدر رئيسي كطبقات السبكي ، واننا اعتمدنا عليه لما وجدنا له من المزايا التالية :

---

(١) ونقل منه السبكي بعض الروايات ، انظر طبقاته : ٨١/٥ ، وانظر ترجمة العز في تاريخ بغداد ص : ١٠٤–١٠٧ ، ولعل نفس الرسالة موجودة في مكتبة جامعة برنستون (Prinston UniversityU.S.A.) باسم « مناقب عز الدين » . انظر فهرس الكتب العربية للمكتبة المذكورة .

أولاً – ينقل لنا عن المصـــادر الاصيلة المباشرة للمترجم له ، فروى لنا بعض أخبار عز الدين على لسان تلميذيه : الحافظ أبي محمد الدمياطي ، والحافظ أبي بكر بن مسدي نقلاً عن معجميهما .

ثانياً – يحرص على الدقة والضبط والتحديد الكافي في ذكر التواريخ . ونرى أوضح مثال لهذا في تحديده تاريخ وفاة العز بالتفصيل الذي يزيل اللبس الناشيء عن روايات أخرى مختلفة(١).

ثالثاً – لايتعصب تعصب أهل المذاهب الفقهية من المترجمين ولا يتساهل تساهل مترجمي الصوفية في إيراد الاخبار . بل يحاول ان يذكر الاوثق منها ، والاقرب الى الحقيقة .

فهذان هما مصدران أساسيان . وكل منهما مستقل عن الآخر ، ولكليهما مزاياه كما عرفنا ، والفرق بين الاثنين أن السبكي عاش في مجتمع دمشق ، الذي عاش فيه عز الدين معظم أيامه قبل مدة من الزمن ، فالتقط كثيراً من الروايات عن طريق والده تقي الدين السبكي مثلاً وغيره ، فأتت المادة عنده غزيرة ، بينما لم يتيسر ذلك لابن رافع لكونه بغدادياً .

وعندنا مصدران آخران تاريخيان رئيسيـــان : أبو المظفر سبط ابن الجوزي ، وشهاب الدين ابو شامة المقدمي . وهما معاصران للشيخ ، فالاول توفي في سنة ٦٥٤ هـ والثاني بعد وفاة العز بخمس سنوات (٦٦٥ هـ) .

---

(١) وسيأتي تفصيله عند الكلام على وفاة العز .

١ ـ **سبط ابن الجوزي** : وهو وإن توفي قبل الشيخ بعدة سنوات فقد حفظ بعض الاخبار عن عز الدين بتحديد التواريخ والامكنة ، فمثلاً : حادثة تسليم سلطان دمشق بعض مدن وقلاع الشام الى الافرنج أوردها بدقة لا توجد عند غيره ، وكذلك بعض المعلومات عن تولي الشيخ أعمال التدريس والخطابة والقضاء . وذلك في سفره الجليل « مرآة الزمان » في الجزء الثامن منه .

٢ ـ **ابو شامة المقدسي** : وهو ولو لم يتعرض لترجمة الشيخ ـ لان هذا ليس موضوعه ـ فقد تحدث عن حوادث شتى تتعلق بالشيخ ، وخاصة الوظائف التي عهدت اليه في دمشق ، مع ضبط التواريخ حسب الترتيب الزمني الذي سار عليه في مؤلفه : « الذيل على الروضتين » . واستفدنا منه كثيراً في معرفة عصر شيخنا وبيئته في دمشق ، إذ كتابه هذا سجل لذلك العصر من الدولة الايوبية حافل .

وبهما استطعنا أن نرتب كثيراً من مراحل حياة الشيخ في إطار زمني متسلسل ، ولكننا نأسف على أننا لم نجد عند ابي شامة التعرض لبعض مواقف الشيخ العز المعروفة من حوادث مهمة مشهورة في مصر ، كبيعه لامراء الدولة الاتراك من المماليك ، وموقفه المشرف من الملك قطز ، قاهر التتار ، في حادثة حربه مع التتار ، مما نجده بتفصيل دقيق عند المؤرخ ابن تغري بردي ، والمقريزي في كتابيهما : « النجوم الزاهرة » و « السلوك في معرفة دول الملوك » وغيرهما من

المؤرخين . فكأن أبا شامة غفل عن حياة الشيخ بعد مغادرته دمشق الى القاهرة ، ولم يصح إلا عندما جاءه خبر وفاته .

وتأتي بعد ذلك الطبقة الثانية من أصحاب التراجم كابن كثير، والكتبي ، والصفدي وهؤلاء لم يذكروا ترجمة الشيخ إلا باجمال واقتضاب .

ثم تأتي مرتبة أخرى من أصحـــاب التراجم أيضاً ، كابن العماد الحنبلي ، وطاش كبري زاده ، واليـافعي ، ومن المؤرخين كابن تغري بردي ، والمقريزي،والسيوطي ، وابن اياس، وغيرهم، وبعضهم فصل فيما حدث تفصيلاً يفوق غيره من القدامى باستثنـــاء السبكي ، كاليافعي في كتابه « مرآة الجنان » فقد ذكر ترجمة الشيخ في حوالي أربع صفحات (١٥٣–١٥٨) . ولكنه أطال الكلام عن النواحي الصوفية لشخصية العز ، ويغلب على معـالجته طابع مترجمي الصوفية من تساهل ، وعدم دقة في إيراد الاخبار . وبعض ما ذكر من تلك المصادر المتأخرة عبارة عن أسطر معدودات ، كشذرات الذهب ، وفوات الوفيات ، وغيرهـــا من كتب التراجم ، فلا نجد عندهم إلا التكرار المحض مع عدم الاستيعاب ، وجليّ انمصدر كل هؤلاء طبقات السبكي .

وأما المؤرخون من هذه الطبقة كابن تغري بردي ، والمقريزي وغيرهما ، فأسعفونا بالكشف والايضـــاح عن بعض الحوادث المهمة في سيرة الشيـخ ، كحادثة اسقاطه اعتبار وزير الصالح نجم الدين، فقد

ذكره المقريزي بتفصيل لا يوجد عند غيره ، وسرد ابن تغري بردي موقف العز من الملك قطز في قضية دفاع البلاد أمام التتار بدقة . وعن طريق هؤلاء ضبطت لنا تواريخ الاعمال التي تولاها الشيخ بمصر .

ويؤخذ على المقريزي انه نصّ في صفحة ٤٧٦ من الجزء الاول لكتابه « السلوك » « مات العز عن اثنين وستين سنة » ولعله تصحيف من الناسخ لم ينتبه اليه محقق الكتاب وعلى كل هو خطأ فاحش ، إذ مات عز الدين عن ٨٢ أو ٨٣ سنة على اختلاف الروايات ، ويجوز أن يكون خطأ مطبعياً ، سها عنه محققه الدكتور مصطفى زيادة ، ولكنه ترك بعد هـذا النص بياضاً في مكان السنة ، كما كان في الاصل ، مما لا يترك مجالاً لحسن الظن هذا .

وأما المصدر الاخير فهو مصدر حديث ، نقصد به محمود رزق سليم في كتابه « عصر سلاطين المماليك » ، ونناقشه الآن كما وعدنا .

لاشك انه أوسع المصـادر كلها ـ قديماً وحديثاً ـ بعد طبقات السبكي ، إذ أورد ترجمة حياة الشيخ في ١٠ صفحات في القسم الثاني الجزء الاول من كتابه هذا . ونقل بعض آراء الشيخ في مسـائل التصوف من رسالتيه المطبوعتين في مصر .

ومما يظهر أن جلّ اعتماده كان على طبقات السبكي ، ثم « السلوك » للمقريزي ، بل بتعبير أصح هو نقل منهما نقلاً مجرداً عن إجراء أية محاولة للتثبت من الاخبار ، وتحديد مراحل حيـاة العز تحديداً

زمنياً ، وبالجملة فهو لا يقدم لنا صورة متسلسلة متناسقة لحياة الشيخ ولو بالاختصار .

ومن المآخذ التي تؤخذ عليه انه انتبه الى ما انتبهنا اليه من تناقض السبكي او تساهله في ذكر تاريخ وفاة عز الدين ، فأشار اليه إشارة عابرة ، ثم مرّ به مرور الكرام ، دون بذل أي جهد للوصول الى الصحيح منهما أو التوفيق بينهما . وكذلك سمى بطل الحادثة المعروفة باسقاط شهادة استاذ الدار لنجم الدين أيوب «عثمان» نقلاً عن السبكي ، وأثبتنا خطأه . واعترافاً للحق نقول ، اننا استفدنا منه في الرجوع الى كتاب السلوك، للمقريزي.

ولا بد أن نشير في الاخير الى فهارس الكتب التي حفظت لنا بحرص زائد وعناية بالغة أسماء تآليف الشيخ التي لم يتيسر للأغلب منها أن يرى نور الطبع والنشر . ومن هذه الفهارس : كشف الظنون لحاجي خليفة ، و «ايضاح المكنون» و «هداية العارفين» لاسماعيل باشا البغدادي البابابي، وفهرست بروكلمن وملحقه باللغة الالمانية وغيرها.

وبذلك نكون قد أوفينا ـ بقدر ما أمكننا في ظروفنا الحالية ـ الموضوع حقه ، فنتقدم في طريقنا لدرس شخصية الرجل ، حسب المخطط الذي وضعناه ، الى الامام بخطى ثابتة ، وعلى نهج سليم ، نرجو أن يؤدي بنا في النهاية الى معرفته معرفة شاملة مستقيمة ؛ أو بعبارة أخرى عسى ان نتمكن من القاء أنوار كشافة عليه، تضيء لنا جميع جوانب حياته ، فاذا بنا أمام صورة الرجل حية ناطقة . والله ولي التوفيق .

عصر العز بن عبد السلام

عصره :

عاش عز الدين بن عبد السلام في نهاية القرن السادس ، واكثر النصف الاول للقرن السابع (٥٧٧ – ٦٦٠ هـ) من بداية عمره الى سنة ٦٣٩ في دمشق ، وباقي أيامه في القاهرة حتى توفي رحمه الله .

وأدرك فترة الدولة الايوبية التي تلي وفاة صلاح الدين الايوبي (سنة ٥٨٩ هـ) ، وما فيها من اضطراب كثير واستقرار قليل لاختلاف أبناء صلاح الدين وابناء اخيه العادل على الحكم فيما بينهم وتناحرهم المستمر .

ورث الحكم بعد صلاح الدين ابنه الملك العزيز بمصر ، وسانده عمه الملك العادل ، وأراد العزيز ان ينشر سلطانه على بلاد الشام كما كانت ايام ابيه ، فهي منطقة شرقية للدولة الايوبية المشتملة على مصر والشام ، فعارضه اخوته في الشام ، وأرادوا ان يقتطعوا البلاد ويتقاسموها فيما بينهم . وبقي الافضل والظاهر من ابناء صلاح الدين مسيطرين على دمشق وغيرها من بلاد الشام الى ان

جاء العزيز ومعه عمه الملك العـادل وأخضع معظم الشام لحكمه . وخلف على الحـكم الملك العادل بعد موت العزيز ، وكان قوياً مستقيماً جاداً ، فاستقرت الاحوال لفترة حكمه في الشام ، ولكنه مات سنة ٦١٥ هـ واختلف هذه المرة أبناؤه على الحكم ، وتشابكوا ، واختص كل منهم بمناطق خاصة . فالملك الـكامل استولى على مصر ، والاشرف على دمشق ، وعيسى وجواد سيطرا على بعض مدن الشام الاخرى . وكان الحـكم في مصر مستقراً نوعاً ما ، أما الشام وبصورة خاصة دمشق ، فـكانت مسرحاً مستمراً للفتن والمنازعات ، والغزو والحصار ، وفوضى الحـكم .

وكان الناس يكتوون بنيران هذه البلبلة والفتن . ويروي لنا المؤرخون عن حصـارين لدمشق في فترة أقل من عشر سنوات (بين ٦٢٦ و ٦٣٥ هـ) وما ابتلي فيهما أهل دمشق من شـدة وغلاء في المعيشة ، وفقر وقلة طعام ، حتى أكل بعض النـاس الجيفة والكلاب[١] .

والعدو الصليبي من جهة أخرى متربص بالمسلمين ، والاحتـكاك مستمر بينه وبين الدولة الاسلامية ، تارة في سواحل الشام ، وأخرى على حدود مصر من ناحية النيل بدمياط .

وتأتي بين هذا الاضطراب فترات استقرار تقصر او تطول ،

---

(١) راجع الذيل على الروضتين لأبي شامة المقدسي لحوادث تلك الفترة .

كفترة حكم الملك الاشرف في دمشق من ٦٢٦ ﻫ الى ان توفي في سنة ٦٣٥ ﻫ .

وعز الدين يرى هــذا وذاك ـ وهو عالم عامل يتحرق للنشاط الاجتماعي والعمل المجدي للأمة ـ ويتألم ويتحسر على سوء الأحوال ، وفوضى الحكم وانحراف الملوك وانســداد باب الدعوة الى الحق ، وفي الاخير يترك دمشق نهائياً الى القاهرة إثر خيانة الصالح اسماعيل في سنة ٦٣٨ ﻫ ، يا ئســاً من صلاح الحال مادام مثل هؤلاء الخونة المغرضون يحكمون البلاد ، ومؤملاً الخير في سلطـان مصر القوي المستقيم الصـالح نجم الدين أيوب ، الذي كان يعرف قيمة عز الدين ويجله ويكرمه .

وعلى كل حال انتهى عصر الايوبيين بقتل الملك المعظم توران شاه سنة ٦٤٨ ﻫ على يد معز الدين ايبك احد مماليك أبيه ، اثر وقعة مع الافرنج الصليبيين بالمنصورة .

وبذلك طوى التاريخ صفحة الدولة الايوبية ، وبرزت للعالم دولة جديدة ، دولة المماليك البحرية في مصر ، واستقرت، بعد مراحل من القلاقل والاضطراب ، على يد الملك الظاهر بيبرس الذي انتصر على التتار في الشـــام سنة ٦٥٨ ﻫ محارباً في جيش قطز ، ثم امتد سلطانه الى بلاد الشام . ومات عز الدين ولم يمض على حكم بيبرس اكثر من سنة ونصف سنة، فعاصر الشيخ العزّ اواسط عهد الايوبيين

واواخره ، ثم بداية دولة المماليك ، وهي مستقرة قوية واستتب لمؤسسها الأمر .

وعصره بالجملة عصر الفتن الداخلية والخارجية ، تتخللها فترات هدوء واطمئنان قد تقصر وقد تطول .

فالفتن الداخلية هي ما أشرنا اليها من خلاف أبناء صلاح الدين، ثم اولاد الملك العادل وتقاتلهم على الملك والسلطان ، وتقاسمهم الحكم على مناطق صغيرة من بلاد الشام . فعلى دمشق واحد ، وفي حمص وما حولها ثان ، وفي حلب ثالث وهكذا . وهذا الخلاف والاقتسام مزق الحكومة القوية الموحدة التي تركها صلاح الدين ، وأذهب ريحهم ، فزالوا من الوجود ليخلوا المكان للسلاطين المماليك الأقوياء .

واما الفتن الخارجية ، فأولاها اندلاع الحروب الصليبية مرة أخرى بعد موت صلاح الدين في سواحل الشام،ونواحي مصر الشمالية لضعف خلفائه . والفتنة الخارجية الثانية الكبرى هي زحف التتار، تلك الكارثة المدمرة للعالم عامة ، وللعالم الاسلامي خاصة . فأزال التتار الخلافة الاسلامية من بغداد. وعزموا أن لايتركوا العالم الاسلامي إلا خراباً يبابا الى ان كسرهم الله في عين جالوت في سنة ٦٥٨هـ.

وللشيخ العز من هذه الفتن الداخلية والخارجية مواقف ايجابية مشرفة ، وسنذكرها بالفصل الخاص بها .

بيئته :

البيئة التي عاشها عز الدين طوال فترتي حياته في الشام ومصر ، بيئة تتنازعها اتجاهات شتى في العلم والعقائد والاجتماع ، وبالجملة فطابعها الغالب الصلاح ، والجد والاستقامة ، وذلك بتأثير السلطان صلاح الدين الايوبي، الحاكم المستقيم التقي والصلب القوي، الذي غيَّر مجرى حياة الناس وحاول أن يطبعهم بطابع الاسلام الصحيح الجاد المستقيم طابعه هو أيضاً ، فكان ما أراد ، اللهم إلا ما كان من انحراف بعض أبنائه او ابناء العادل ممن حكموا بعده ، كعيسى والجواد في دمشق والملك المعظم توران شاه في مصر ، إذ عرف منهم الاستهتار والتهتك، وقلة المبالاة بامور الدين[1] .

ولكن الوازع الديني ما زال قوياً في المجتمع ، وللعلماء والصلحاء من الامة مكانة محترمة وكلمة مسموعة عند الشعب والسلاطين على السواء . وهم يؤدون وظائف التوجيه والارشاد للأمة بكثير من الحرية اذا صحّت العزيمة عند أي واحد منهم، وأخلص لله وترفّع على قريب الغايات وعاجل المنافع .

وكان لهذا الجو تأثير قوي في العلوم واتجاه المجتمع ، فعلوم السنة لها سوق نافقة وعليها اقبال شديد ، ولبيت ابن عساكر في ذلك شأن

(١) انظر في ذلك الذيل على الروضتين ، فترات حكم هؤلاء .

وأي شأن . وللمذهبين العقائديين : مذهب الاشعرية ، ومذهب أهل الظاهر من الحنابلة المتعصبين سلطان على النفوس ، والناس يتحزبون ويتعصبون لهذا المذهب أو ذاك . وأصحاب الحكم إما مع أهل المذهب الثاني كما كان من الملك الاشرف، فتضييق وبلاء على أهل المذهب الاول ، وإما مع الاشعرية كالملك الكامل وابنه نجم الدين ايوب (بمصر) فلهم عزة ومكانة ونفوذ .

والشيخ عز الدين ذاق مرارة اولئك واضطهادهم له، لانه اشعري العقيدة في الحاح وحماس ، ونعم بحلاوة هؤلاء وتقديرهم له وتبجيلهم إياه .

ويمازج هذه البيئة لون من التصوف يكاد يكون عاماً في انتشاره بين شتى طبقات المجتمع ، وتظهر في هذا العصر اقوى طريقة صوفية في زمنها : الطريقة السهروردية ، وإمام الطريقة الشيخ شهاب الدين السهروردي يتردد بين بغداد ودمشق ، ويتصل برجال دمشق وشيوخها . وبدأت هذه الطريقة تستهوي نفوس الناس فتستميل الشيخ العز ايضا، ويبايع فيها بدمشق. وفي مصر ظهرت طريقة جديدة قوية : الشاذلية ، ويستجلب صاحبها الشيخ ابو الحسن الشاذلي الانظار اليها ويختلف اليه كبار علماء مصر من المحدثين والفقهاء امثال الحافظ المنذري ونحوه ، فيلتقي به الشيخ العزّ ويصاحبه ويحبه ، وينتفع كل منهما بالآخر في مجاله .

وبالجملة هي بيئة برزت فيها عبقريات ، كالحافظ ابي محمد القاسم ابن الحافظ الكبير علي بن عساكر ، والحافظ المنذري في الحديث ، وفخر الدين بن عساكر ، والآمدي في الفقه الشافعي والاصول ، والشيخ شهاب الدين السهروردي ، والشيخ ابي الحسن الشاذلي في التصوف ، والقاضي الشهير جمال الدين بن الحرستاني (بدمشق) وقاضي القضاة ابن شداد (بحلب) في الحكم والقضاء ، وبيت ابن أثير في وفرة الانتاج العلمي .

وعز الدين أفاد من هؤلاء وهؤلاء ، فاثّرت فيه شتى العبقريات، وتكونت منه شخصيته ، مميزة فى استقلالها ، مبرزة في نبوغها ، قوية في تأثيرها في المجتمع .

الفصل الأوّل

سيرته وحياته

اسمه الكامل : ابو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن بن محمد بن المهذب السُلمي الدمشقي الشافعي[١] ، الملقب بسلطان العلماء والمشتهر بالعزّ بن عبد السلام . والسلمي نسبة الى بني سُليم ، إحدى القبائل المشهورة من قبائل مضر. والمنتسبون اليها لا يحصون[٢] .

ولادته : اختلف في سنة ولادته بين سبع وسبعين ، وثمان وسبعين وخمس مائة . هكذا بدون الجزم في جميع المصادر عنه ،ولعل على هذا الاختلاف بني الخلاف في عمره بين اثنتين وثمانين، وثلاث وثمانين سنة ، واذا صحت رواية السبكي الذي نص على انه عاش ثلاثاً وثمانين سنة[٣] ، والتي أيدهـــا ابن تغري بردي[٤] ، جاز لنا أن نقول انه

---

(١) تاريخ علماء بغداد : ١٠٤
(٢) انظر اللباب في تهذيب الانساب ١/٥٥٣
(٣) طبقاته : ٥/١٠٢
(٤) النجوم الزاهرة : ٧/٢٠٨

ولد في سنة ٥٧٧ في حوالي ربيـع الآخر منها .

نشأته : نشأ عز الدين وتربى في دمشق حتى ترعرع، ولا نعرف شيئاً عن طفولته ونشـــأته كيف كانت ، الا اننا نستطيع الجزم بانه لم تتيسر له أسباب التعلم والدراسة في هــذه الفترة من عمره ، استنـــاداً الى رواية السبكي عن بداية تعلمه ، وسنسوقها فيما بعد بمناسبة أخرى .

ويمكننا ان نقطع بانه نشـــأ صالحاً متديناً شديد التدين في جو صالح تقي ، من رواية السبكي نفسها التي تقول ان عز الدين احتلم في ليلة شديدة البرودة ـ وكان نائماً في الكلاسة[1] ـ ثلاث مرات ، واغتسل في كل مرة بماء البركة المفتوحة الذي كان في برودة الصقيـع، أو « كسر الجليد نفسه »[2] على اختلاف الروايتين . فاغتسل به كل مرة حتى أغمي عليه من شدة البرد . ففي مثل هــذه الرواية دليل كاف على نشأته نشأة متدينة مستقيمة ، الى حد انه حبب اليه الأخذ بالعزائم او بتعبير آخر بالمستوى الاعلى في امور العبـــادات وهو شاب يافع بعد .

ونعرف انه نشأ فقير الحال . قال السبكي : سمعت الشيـخ

(١) زاوية الباب الشمالي لجامع دمشق .
(٢) مرآة الجنان ؛ ١٥٤/٤

الامام (يقصد والده) يقول : «كان الشيـخ عز الدين في أول أمره فقيراً جداً [١] ولم يشتغل إلا على كبر . »

دراسته : أشرنا آنفاً الى انه لم يتيسر له سبيل التعلم في صباه وذلك لشدة فقره فبدأ دراسته بعدما بلغ وكبر كما يرويه السبكي ، ويظهر من روايته تلك ان هذه البداية كانت مفاجأة مباركة لانطلاق عز الدين في ميادين العلم الفسيحة فيما بعد .

ينقل السبكي عن والده في قصة اغتساله بالجليد الآنفة الذكر : « فاغمي عليه من شدة البرد ، ثم سمع النداء في الاخير ، يا ابن عبد السلام ! أتريد العلم أم العمل ؟ فقال الشيـخ عز الدين : العلم ، لانه يهدي الى العمل . فأصبح ، واخذ «التنبيه» [٢] فحفظه في مدة يسيرة . واقبل على العلم ، فكان أعلم أهل زمانه » [٣] .

ولئن صحت هذه الرواية بتفاصيلها كنقطة انطلاق للشيخ عز الدين في طريق العلم والتحصيل أو لم تصح ، فهي النص الوحيد لدينا عن بداية تعلمه ، وليست لدينـا أية معلومات اخرى عن عهد صبـــاه ودراسته فيه ، مع حرص بعض مترجميه على ايراد التفاصيل الدقيقة عن حياته .

---

(١) طبقاته : ٨٢/٥

(٢) متن متداول في الفقه الشافعي .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى : ٨٢/٥

أما صياغة النص المذكور التي تعرض قصـــة اتجاهه الى الدرس والتعلم في صورة حادثة غير عادية وبركة من بركات الله ، فمع عدم استرسالنا في الاخذ بمثل تلك الروايات ، نرى انه ليس بعيداً عن الواقع ، فان الله القدير المتصرف المنان ، الذي يخلص له عبده ، ويتفانى في تقديم اصدق آيات العبودية وأشدها على النفس اليه ، ليس بعزيز على هذا القادر الكريم أن يهب عبده هذا المخلص المطيع مايشاء من مواهب وطاقات ، « وله مقاليد السموات والارض » .

ودرس الشيـخ عز الدين العلوم العربية والدينيـة بمختلف فنونها من نحو وبلاغة ، وحديث وفقه وأصول على كبار أسـاتذة عصره وأئمة العلم . سمع الحديث في دمشق من الحافظ أبي محمد القاسم بن الحافظ الكبير علي بن عســاكـر ، ودرس الفقه الشافعي على الشيخ الامام فخر الدين بن عساكر « وتخرج عليه » حسب التعبير القديم . وأخذ علم الاصول عن سيف الدين الآمدي . وحضر على شيوخ آخرين كشيـخ الشيوخ عبد اللطيف البغــــدادي ، وبركات بن ابراهيم الخشوعي والقاضي جمال الدين بن الحرستاني ، وعليـه كانت بداية تعلمه[1] .

وسافر لسماع الحديث الى بغداد ، فسمع بها من أبي حفص عمر بن طبرزد ، وحنبل بن عبدالله الرصافي. ولم يمكث بها طويلا .

---

(١) الدارس من المدارس للنعيمي : ٣٠٩/١

قال ابن رافع السلامي : «وسمعت بعض المحدثين يقول : انه دخل بغداد في طلب العلم فوافق يوم دخوله موت الحافظ ابي الفرج بن الجوزي . قلت : وكان ذلك في سنة ٥٩٧ »[1]

خدماته :

تنوعت خدمات الشيخ من تدريس وافتاء، وخطابة ، وقضاء في دمشق حين اقامته بها ، ثم في القاهرة بعد انتقاله اليها. فنقسم ذلك الى فترتين .

في دمشق

بعدما أشبع الشيخ العز نهمه من الدرس والتحصيل وتخرج ، اتجه على عادة أهل عصره ، الى التدريس ، وتصدى للافتاء أداء لرسالة العلم ، وخدمة لجمهور المسلمين. ثم تولى خطابة جامع دمشق . وتقول بعض الروايات انه عهد اليه منصب القضاء بها والسفارة الى دار الخلافة ببغداد . ونذكر ذلك بالتفصيل فيما يلي :

التدريس : درس الشيخ عز الدين بعدة مدارس بدمشق، كما قال مترجموه ، والمعروف من هـذه المدارس : المدرسة

---

(١) تاريخ علماء بغداد : ١٠٦ وانظر مرآة الجنان : ١٥٧/٤

الغزالية[١] ، والمدرسة الشبلية البرانية[٢] .

أما فترة تدريسه بهما على التحديد فلا نعرف إلا عن الاولى . باشر عز الدين التدريس بها من جمادى الاولى سنة ٦٣٥ هـ ، وليَه من قبل السلطان الملك الكامل ، بعد وفاة جمال الدين الدولعي[٣].

ولعله بدأ التدريس أولاً في المدرسة الشبلية البرانية أيام الملك الاشرف (ولم يكن الشيخ على وفاق تام معه كما سنرى) ،ثم لما تملك الكامل - وكان يحب ويكرم العز - دمشق عهد اليه وظيفة التدريس بالغزالية .

ونستأنس في ذلك بان كان عمر الشيخ عندما قام بوظيفة التدريس بالغزالية ٥٢ سنة ويستبعد أن يبقى الى هذا السن المتأخر بدون أن يدرس ويفيد ، ونضج علمه واكتمل .

الافتـــاء : مارس عز الدين الافتاء أداء لواجب دينه وعلمه ،

---

(١) نسبت عند انشائها الى الامام الغزالي لانه اعتكف بالزاوية الغربية للجامع الاموي حين اقامته بدمشق ، وتذكر ايضاً بالزاوية الغربية ، وكانت مشهورة تولى بها التدريس كبار شيوخ العصر .

(٢) وكانت خارج دمشق على سفح جبل قاسيون ودرس بهـا الصوفي الشهير مولانا جلال الدين الرومي ايام اقامته بدمشق . انظر في ذلك الدارس من المدارس : ٥٣٢/١

(٣) الذيل على الروضتين : ١٥١

وظل قائماً به بدافع من نفسه وتقاه طوال بقائه في الشام، ثم في مصر، وكان يدعى بمفتي الشام[1] . وشهرته فيه قد جاوزت بلاد الشام . قال ابن كثير : « وقُصد بالفتاوى من الآفاق»[2] .

ويؤيد ذلك قصد أهل الموصل له بالاستفتاء حتى جمع في ذلك مجموعة ، تذكر في تآليفه باسم « الفتاوى الموصلية » ونص الذهبي على ميزته في الافتاء قائلا : « وله الفتاوى السديدة »[3] .

الخطـــابة : كان منصب الخطابة في جامع لعاصمة من العواصم الاســـلامية منصباً خطيراً آنذاك والجامع الاموي أحد الجوامع الكبيرة العتيدة كان يحتل مكاناً مرموقاً من هذه الناحية إذ ما كان يتولى خطابته الا كبار علماء العصر . وكان من خطبائه القاضي الشهير والعالم الكبير شمس الدين ابن خلـكان.

ولي عز الدين خطابة جامع دمشق من قبل الملك الصالح اسماعيل في ربيع الآخر سنة ٦٣٧ . وعقب ابو شامة على هذا تعقيباً يدل على جدارة الشيـخ بهذا المنصب . قال في حوادث سنة ٦٣٧ :

« وفي العشر الاخير من ربيع الآخر تولى الخطابة بدمشق أحق

---

(١) انظر الذيل على الروضتين : ١٧٠

(٢) البداية والنهاية : ٢٣٥/١٣

(٣) ابن تغري بردي عنه في النجوم الزاهرة ص٢٠٨/٧

الناس بالإمامة يومئذ ، الشيخ الفقيه عز الدين بن عبد السلام السلمي، مفتي الشام يومئذ »[١] .

ولم يدم هذا المنصب للشيخ طويلاً ، إذ عزل منه في سنة ٦٣٨ ، اثر خلاف نشأ بينه وبين السلطان المذكور في حادثة الخيانة السياسية المشهورة التي انتقده فيها العز ، لانه لم يرض أن تدنس قدسية منبر الجامع التي أرساها رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم بالمداهنة والسكوت عن الحق ، فكان جزاؤه ان عزل وحبس[٢] .

وأبطل بمجرد تعيينه على هذا المنصب كثيراً من البدعات التي كانت تعمل بها في الجامع . كدق السيف على المنبر ، ولبس السواد عند الخطبة ونحوها ، ومنع من صلاة الرغائب وصلاة نصف شعبان به .

القضاء : لم يعرف عنه انه تولى القضاء في دمشق ، فجميع المصادر الاصيلة ساكتة عنه كما لم يذكره ابن طولون من بين قضاة دمشق في كتابه المعروف عنهم ، إلا ان السبكي نقل عن رسالة ولد عز الدين في سيرة والده ، انه عهد اليه منصب القضاء بدمشق .

---

(١) الذيل على الروضتين : ١٧٠

(٢) انظر الحادثة بالتفصيل في بحث مواقفه الحاسمة فيما يأتي.

فقال بعد الكلام على مجيء السلطان الكامل من مصر وتملكه دمشق بعد المصالحة مع أخيه الصالح اسماعيل صاحبها : « ثم ولاه (اي الكامل) قضاء دمشق ، بعدما اشترط عليه شروطاً كثيرة ، ودخل في شروطه[١] . »

ولنا بعد ذلك أن نقول : أن السلطان الكامل لم يحكم دمشق إلا شهرين ونصف الشهر تقريباً ، من أوائل جمادى الاولى سنة ٦٣٥ الى ٣٢ رجب من نفس السنة ، يوم توفي في قلعة دمشق[٢] . ولعل عز الدين بقي في منصب قضاء دمشق برهة من الزمن خلال هذه الفترة القصيرة من حكم الكامل لدمشق . إذ حكم بعده أخوه الصالح اسماعيل ، ولم يكن يعجب بالشيخ ، ولا يرضى أن يبقيه في القضاء ، وقد حرّم عليه اللعب بالبندق[٣] .

ولعل قصر فترة بقائه بهذا المنصب جعل أصحاب التراجم وابن طولون لايذكرونه بين قضاة دمشق .

---

(١) طبقات السبكي : ٥/١٠٠ ، وبناء على هذا – فيا نظن – ذكره المرحوم الشيخ عبد القادر المغربي قائلا ، « وكان قاضياً بدمشق » في كتابه محمد والمرأة : ٥٥

(٢) انظر الذيل على الروضتين : ١٦٦

(٣) انظر في ذلك طبقات السبكي ٥/١٠٠

السفارة : لم يكن للسفارة منصب معين باسمها في تلك الازمان وإنما كان الملك او السلطان يختار احد كبار الشخصيات من العلماء أو الوجهاء ، فيبعثه بالرسالة الى من يريده من الملوك او الخليفة . كما ورد كثيراً الشيخ شهاب الدين السهروردي وسبط ابن الجوزي وغيرهما رسولاً من عاصمة الخلافة الى دمشق أو القاهرة ، في العصر الذي نترجم له .

ولا نعرف انه اختير لهذا المنصب إلا من نفس رسالة ولد الشيخ عز الدين ، التي تروي لنا أن السلطان الكامل بعد تولية عز الدين قضاء دمشق وجهه برسالة الى الخلافة ببغداد ، ولكننا لم نقف على انه قام بهذه المهمة فعلاً . ولعل نفس العذر السابق او عدم تحقق القيام بالوظيفة جعل عامة مترجميه لا يشيرون الى هذه السفارة أيضاً .

في مصر

كانت دمشق قد ضاقت على عز الدين برحبها بعد اضطهاد الصالح اسماعيل إياه في حادث الخلاف بينه وبين الشيخ ، وسلبه حرية الكلام والعمل منه ، فتوجه الى مصر ، مؤملاً في صاحبها الصالح نجم الدين أيوب الخير والفائدة ، وكان حسن السيرة ويحترم الشيخ ، فوصل الى القاهرة في سنة ٦٣٩ هـ . واستقبله السلطان استقبالاً

حافلا ، وعهد اليه عدة مناصب ، على التفصيل الآتي :

الخطـــابة : بعد وصول الشيـخ عز الدين مباشرة ، ولاه الصالح نجم الدين خطـابة جامع مصر (جامع عمرو بن العاص) . وجمع له مع الخطابة منصباً آخر يصح ان نطلق عليه « مدير عمارة المساجد » في تعبيرنا الحديث ، اذ قال السبكي بعد ذكـر ولايته الخطـابة : « وفوض اليه عمارة المســاجد المهجورة بمصر والقاهرة »[١] .

رئاسة القضاء : وفي نفس الوقت عينه على منصب رئاســة القضاء لمصر والوجه القبلي . (وكانت الادارة القضائية في كل من القاهرة ، ومصر والوجه القبلي مستقلة) ولذلك يذكر عزالدين في كتب التراجم « بقاضي القضاة » .

تولى الشيـخ العزّ هـــذه الوظيفة في ١٠ جمادى الاولى سنة ٦٣٩ أثر وروده الى القاهرة وبعد وفاة قاضي القضاة شرف الدين بن عين الدولة[٢] .

وكان صلباً في حكمه وقضائه وجريئـاً في التنفيذ . مما اضطره

---

(١) وكان يطلق « مصر » (او الفسطاط) على البقعة التي اختارها عمرو بن العاص للمدينة بعد فتحه مصر ، وهي تعرف الآن بمصر القديمة « والقاهرة » على المدينة التي بناها معز الدين الفاطمي فيا بعد بجانب مصر . تضمها القاهرة الآن.

(٢) الذيل على الروضتين : ١٦٢ ، والسلوك : ٣٠٨/١

كثيراً أن يجابه الاخطار ويتعرض الأذى . جرت له حادثتان ــ وهو في القضاء ــ اضطرتاه للاستقالة كل مرة انتصاراً للحق والعدالة ، وأشار الى هذا السبكي قائلا :

« ثم عزل نفسه عن الحكم ، فتلطف السلطان في رده اليه ، فباشره مدة ، ثم عزل نفسه مرة ثانية ، وتلطف مع السلطان في امضاء عزله بنفسه ، فأمضاه » .

واحداهما صرح بها السبكي وغيره ، وهي الاخيرة التي لم يعد بعدها الى القضاء ، والثانية لم ينص عليها احد من المترجمين ، وفي غالب ظننا انها كانت في الحادثة المعروفة بـ « بيع امراء الدولة الاتراك المماليك » عندما استقال العز من منصبه احتجاجاً على تدخل السلطان في القضاء ومحاولته تعديل حكم العز على هؤلاء الأمراء . ولكن غضب الشيخ من السلطان وعزمه لمغادرة القاهرة ، بل خروجه منها فعلاً بقصد الشام جعل السلطان نجم الدين يخضع له ويسأله العودة الى منصبه ، مطلقاً يده في تنفيذ ما يراه حق القضاء والشرع ، فعاد . فهذه هي المرة الاولى التي تلطف فيها السلطان مع عز الدين ، ورده الى منصبه ، بعدما استقال منه .

وأما الاستقالة الثانية التي لم يعد بعدها الى القضاء ، فكانت اثر حكمه على وزير المملكة الذي بنى بيتاً للهو والغناء فوق سطح احد

مساجد مصر ، منتهكاً أحكام الشرع ، فحكم عز الدين بهدم هـذا البيت ، وأسقط اعتبار الوزير في الشهادة ، وعزل نفسه من القضاء . وقبل السلطان هـذه المرة استقالته ، وعيّن صدر الدين الموهوب الجزري ، أحد نوابه في الحكم مكانه . وكان ذلك في ذي القعدة سنة ٦٤٠ هـ .

ومعناه انه لم يطل بقاءه في هـذا المنصب كثيراً ، اذ استقال منه بعد سنة تقريباً بتلطف منه والحاح . ويظهر من بعض النصوص ان السلطان قبلها كارهاً . قال الكتبي في هذا الصدد : «وعظم ذلك على السلطان»[1] لانه هو الذي رحب به ، وفتح له صدره ورأى فيه خيراً وبركة لبلاده .

وتقول بعض الروايات ان الصالح نجم الدين استغل هذه الفرصة فأعفاه من منصب الخطابة أيضاً . والسبب في تصرف السلطان هذا خوفه على نفسه من لسان العزّ بان ينتقده وينال منه علناً على المنبر كما فعل مع سلطان دمشق .

ذكر الكتبي بعدما حكى عن استقالة الشيخ : «وقيل له : اعزله عن الخطابة وإلا شنّع عليك على المنبر كما فعل في دمشق ، فعزله»[2] .

(١) فوات الوفيات ٥٩٥/١

(٢) فوات الوفيات : ٥٩٥/١ ، وشذرات الذهب : ٣٠٢/٥

ولزم بعد ذلك بيته – ما عدا التدريس في مدرسته – يدرس ويفيد ، ويفتي ويؤلف بعيداً عن الامراء والملوك .

وفارق القضاء ، وهو يشار اليه بالبنان لعدله في الحكم ، ومساواته بين الناس في القضاء ، وقال الشيخ ابو الحسين الجزار فيه :

سار عبد العزيز في الحكم سيراً لم يسره سوى ابن عبد العزيز
عمنا حكمه بعدل بسيط شامل الورى ولفظ وجيز[1]

التدريس : كان السلطان الصالح نجم الدين بنى في سنة ٦٣٩ المدرسة الصالحية المعروفة بين القصرين في القاهرة ، ولاول مرة أنشأ فيها اربعة دروساً لتدريس الفقه على المذاهب الاربعة . فبعدما رأى السلطان من الشيخ زهده في منصب القضاء ، وقبل استقالته عرض على الشيخ تدريس الفقه الشافعي في هذه المدرسة ، فقبله .

ويفهم من كلام المقريزي أن الشيخ بدأ التدريس بها في سنة ٦٥٢ هـ ، اذ قال : « ودرس فيها (أي سنة ٦٥٢ هـ) عز الدين بن

---

(٣) الوافي بالوفيات مصور طبوقسرائي : ١٩/٥ ، والسبكي : ١٠٣/٥ ، وفيه : وعلا حكمه بفضل وسيط ، ومخطوط ظاهرية : ٤٦١٦ وفيه : بعدل وسيط .

عبد السلام بالمدرسة الصالحية »[١] ولكنه ليس بصحيح ، إذ الظاهر من كلام ولد الشيخ - الذي نقل السبكي عنه - ان هذه الوظيفة عهد بها اليه اثر انشاء المدرسة ، واستقالة الشيخ من القضاء[٢] .

وعرفنا فيما سبق ان عز الدين استقال من القضاء في سنة ٦٤٠ هـ ، وان المدرسة المذكورة اكتمل بناؤها في نفس السنة ، فسنحت الفرصة للصالح نجم الدين ان يعوض على الشيخ ما تركه من مناصب ويستفيد من علمه ونبوغه ، وهو في أوج فضله وشهرته .

وظل يدرس بها عز الدين الى ان توفي . حكى صاحب فوات الوفيات : « وارسل له السلطان (الظاهر بيبرس) لما مرض ، وقال : عين مناصبك لمن تريد من اولادك . فقال : ما فيهم من يصلح وهذه المدرسة للقاضي تاج الدين[٣] » ابن بنت الاعز .

ولم يقتصر نشاط « سلطان العلماء » على القيام بوظيفة التدريس الرسمية فحسب ، بل ظل يقوم برسالة العلم في ميادين أخرى حرة ، من إلقاء دروس في بيته ، وافتاء وتأليف .

ومما يذكر من ميزاته في التدريس « انه بدأ بالقاء دروس في

---

(١) السلوك : ج ١ في حوادث ٦٥٢ هـ

(٢) انظر طبقات الشافعية الكبرى : ٨١/٥

(٣) فوات الوفيات : ٥٩٥/١

التفسير لأول مرة ، ولم يكن معهوداً من قبل . قال ابن العماد الحنبلي : « وأخذ التفسير في دروسه ، وهو أول من أخذه في الدروس »[1] وكذلك نوه به السيوطي قائلا : « وألقي التفسير بمصر دروساً »[2].

ومن المؤكد ان تلك الكثرة الوافرة من المؤلفات في مواضيع شتى من فقه ، وأصول ، وفتاوى ، وتصوف ، وتفسير ونحوها التي تركها لنا ، قد ألفها في هذه الفترة من عمره وقد قضى ستة عقود من عمره ، ولقد نضج ذهنه ، وغزر علمه ، واتسع أفقه .

الافتـــاء : لم يكن للافتاء منصب رسمي بل كان يقوم به عالم الشرع أداء لرسالة العلم وخدمة للجمهور . واشتهر الشيخ عز الدين به ، وهو في دمشق ، حتى كان يدعى « بمفتي الشام » كما عرفنا واجتازت شهرته فيه حدود الشام ، واعترف له بالفضل .

وبعد مجيئه الى مصر اعترف له في هذا الميدان ، وتنازل له حافظ الديار المصرية وعالمها الشهير الشيـخ المنذري عن الافتاء قائلا : « كنا نفتي قبل حضور الشيـخ عز الدين واما بعد حضوره فمنصب الفتيا

(١) شذرات الذهب : ٣٠٢/٥

(٢) حسن المحاضرة : ١٧٣/٢

متعين فيه »[١] . هذا ، وتكونت له فيها مجموعة من الفتاوى ما تدعى في مؤلفاته بـ « الفتـاوى المصرية » .

وفاته وعمره :

لقد أنهى عز الدين رحلة الحياة الطويلة بعدما خدم وأفاد كثيراً رأينا بعض الجوانب منها ، وسنرى اخرى من وجهات نظر خاصة، وتوفي في العـاشر من جمادى الاولى سنة ٦٦٠ هـ ، على الرواية المعروفة[٢] بمصر .

ولنكون أدق ، فنقول : انه اختلف في يوم وفاته دون الشهر والسنة وهو اختلاف جد يسير . فشك أبو شـامة قائلا : ان وفاته كانت يوم الاحد عاشر جمادى الاولى او الحادي عشر »[٣]. واضطرب السبكي فيما رواه فقال مرة : كانت وفاته في تاسع جمادى الاولى ، وكرر اخرى انه توفي في العاشر من جمادى الاولى[٤] . ولو دققنا النظر لرأينا انهما ليستا روايتين من شخص واحد (السبكي) بل روايتين من شخصين مختلفين ، فالاولى رواية شرف الدين ولد

---

(١) طبقات السبكي : ٨١/٥

(٢) البداية والنهاية : ٢٣٦/١٣ ، النجوم الزاهرة ٢٠٨/٧ وغيرهما

(٣) الذيل على الروضتين : ٢١٦

(٤) انظر طبقاته : ١٠٢/٥ و ١٠٣

الشيـخ في رسالته ونقلها السبكي ، والثانية رواية السبكي وهي ماعليها عامة المؤرخين .

وأما الرواية الثالثة فهي عن ابن رافع السلامي الذي قال نقلاً عن الحافظ الدمياطي (تلميذ الشيخ) : « وتوفي يوم السبت تاسع جمادى الاولى ٦٦٠ هـ ودفن من الغد بسفح المقطم ، حضرت ذلك»[١] وهي أدق الروايات واضبطها واوثقها . إذ توافق رواية والد الشيـخ من جهة ثم تفوقها في التفصيل ، واما رواية أبي شامة فوردت بصيغة الشك فلا يعتمد بها ، واشتهر اليوم العاشر لانه يوم دفن ، وهو يوم مشهود ، وقد يخفى وقت الوفاة بالضبط على عامة الناس .

اختلف في عمر عز الدين ، ففي رواية انه عاش ٨٢ سنة ، وفي أخرى ٨٣ سنة ، وهو يرجع الى الاختلاف في سنة ولادته.

ولدينا فيها روايتان رئيسيتان ، رواية السبكي الذي نصّ على انه عمّر ثلاثا وثمانين سنة[٢] ، والثانية عن الذهبي ، أو بالاحرى عنه روايتان ، تنص الاولى : انه عاش ٨٢ سنة[٣] ، والثانية كالمعروفة (٨٣ سنة) ، قال ابن تغري بردي نقلاً عنه : « وفيها (سنة ٦٦٠هـ)

---

(١) تاريخ علماء بغداد : ١٠٧

(٢) طبقاته : ١٠٢/٥ ، ومرآة الجنان : ١٥٤/٤ وغيرهما .

(٣) مختصر تاريخ دول الاسلام : ١٢٨/٢

توفي العلامة العزّ في جمادى الاولى عن ثلاث وثمانين سنة»[١] .

واذا أخذنا برواية الذهبي ، التي توافق ماقاله السبكي زال الاضطراب ، وصح لنا أن نقول : انه عاش ٨٣ سنة . وتروى في ذلك رواية لا تخلو من الطرافة .

قال السبكي : حكي ان شخصاً جاءه (العزّ) وقال له: رأيتك في النوم تنشد :

وكنت كذي رجلين ، رجل صحيحة
ورجل رمى فيها الزمان ، فشلّت

فسكت ساعة ، ثم قال : اعيش من العمر ثلاثا وثمانين سنة ، فان هذا الشعر لكثير عزة ، ولا نسبة بيني وبينه غير السن ، أنا سني وهو شيعي ، وأنا لست بقصير وهو قصير، ولست بشاعر وهو شاعر ، وأنا سلمي وهو ليس بسلمي ، لكنه عاش هذا القدر[٢]» ثم عقب السبكي قائلًا : « فكان الامر كما قال رحمه الله».

دفنه وعزاؤه : ودفن يوم الاحد ١٠ جمادى الاولى سنة ٦٦٠ بسفح المقطم ، بكامل اجلال وبالغ توقير ، اذ شارك في جنازته ، وصلى عليه ملك مصر والشام القوي الشهير ، الظاهر بيبرس ،

---

(١) النجوم الزاهرة : ٢٠٨/٧

(٢) طبقات الشافعية : ١٠٢/٥

وشهدها خلق لا يحصون على رواية عدة مؤرخين[١] .

نقل السبكي عن شرف الدين بن الشيخ العزّ عند ذكر وفاته : « فحزن (بيبرس) عليه كثيراً ، حتى قال: لا إله إلا الله، ماااتفقت وفاة الشيخ إلا في دولتي ، وشيع امرائه ، وخاصته وأجناده لتشييع جنازته ، وحمل نعشه ، وحضر دفنه . »[٢]

وبقي أهل دمشق محتفظين بحبه ، والاكبار له بعد هجرته الى القـــاهرة ، وبرهنوا علي ذلك عند وفاته . إذ ما عرفوا موته إلا وهرعوا ، يترحمون عليه ، ويدعون له ، ويقيمون له العزاء . فصلّي عليه في الجامع الأموي ، وجوامع دمشق الاخرى . وعملوا عزاءه « بجامع التوبة » .

يقول ابو شامة : « وعمل عزاؤه بجامع العقيبة (وهو اسمه القديم) يوم الاثنين ٢٥ جمادى الاولى ونادى النصير المؤذن بعد الفراغ من صلاة الجمعة : الصلاة على الفقيه الامام شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام . »[٣]

---

(١) انظر تاريخ علماء بغداد : ١٠٧ ، الذيل على الروضتين : ٢١٦ ، البداية والنهاية : ٢٦٦/١٣ وغيرهم .

(٢) طبقاته : ١٠٢/٥

(٣) الذيل : ٢١٦

الفصل الثاني

أثره العلمي واتجاهاته

ثقافته ومكانته العلمية :

لقد عرفنا ان ابن عبد السلام درس العلوم العربية والحديث ، والتفسير ، والفقه والاصول على كبار شيوخ عصره . وكان أظهر ما برّز فيه الفقه الشافعي وأصوله ، ولم يكن فقيهاً نظرياً فحسب ، بل مارس القضاء لفترة ، والافتاء طوال حياته .

وعلى الرغم من انه عرف كواحد من أئمة الفقهاء الشافعية ، وزاول تدريس الفقه الشافعي زمناً طويلا ، فهو في الحقيقة ليس فقيهاً شافعياً بمعنى الكلمة الضيق ، لانه تخطى كثيراً حدود الفقه الشافعي ، ولم يتقيد به دائماً ، ولذلك عدّ من المجتهدين . ونصّ على ذلك كثير من مترجميه القدامى . قال السيوطي: «ثم كان في آخر عمره لايتعبد بالمذهب ، بل اتسع نطاقه ، وأفتى بما أدى اليه اجتهاده .»[1]

---

(١) حسن المحاضرة : ١٧٣/٢

ثم ان كتابه العظيم المعروف (قواعد الاحكام في مصالح الانام) كله قائم على نظرية اعتبار المصالح في بناء الاحكام الشرعية ، وهو نادى بها كثيراً فيه . والمعروف عن الشافعية انهم لا يعترفون بهذه القاعدة ولا يأخذون بها [1].

ولعل من هنا كان قول من قال : انه بلغ رتبة الاجتهاد، ولعله لهذا لقب بسلطان العلماء . وكان رحمه الله ذا ثقافة فقهية عميقة رصينة ، وملكة في أصول الفقه عالية أصيلة ، ومن اكبر ميزاته انه فهم حقائق الشريعة هذا الفهم الكلي ، وأحاط بروح الشريعة ومقاصدها تلك الاحاطة الشاملة التي قلما تتأتى للانسان ، ولو جمع علماً جما ، وترك مؤلفات كثر . وتلك الملكة الفقهية الاصيلة ، وذلك الادراك الصحيح العميق لمقاصد الشريعة [2] هما اللذان أديا به الى انتاج أبدع أثر فقهي أصولي ، هو كتابه المذكور.

وحري بنا أن نستعرض هنا أقوال بعض العلماء الاعلام من السلف ، فيه :

---

(١) « والصحيح انهم اخذوا بها بعض الاحيان وبنوا عليها الاحكام وان لم يصرحوا بها » انظر في ذلك محاضرات في أصول الفقه للاستاذ مصطفى زيد بكلية الشريعة ، جامعة دمشق سنة ١٩٥٩

(٢) وسنرى بعض الشواهد على ذلك عند الكلام على « نظراته الفقهية الاجتهادية »

قال شيخ الاسلام الذهبي : « وقرأ الاصول والعربية ، وبرع في المذهب ، وبلغ رتبة الاجتهاد ، وقصده الطلبة من الآفاق ، وتخرج به أئمة »... الخ[١].

وقال ابن كثير : « وانتهت اليه رئاسة الشافعية ، وقصد بالفتاوى من الآفاق »[٢].

وقال الحافظ ابو بكر بن مسدي الاندلسي : « أحد فقهاء هذا المذهب ، ممن فرع على أصوله وهذب ، ورأس على فقهاء بلده »[٣].

ونقل صاحب تاريخ علماء بغداد ، عن الشريف عز الدين الحسيني فيه : « وكان علم عصره في العلم ... وشهرته تغني عن الاطناب في ذكره ، والاسهاب في أمره »[٤].

وقال شيخ الاسلام ابن دقيق العيد : « كان ابن عبدالسلام احد سلاطين العلماء »[٥].

وبالغ العلامة ابن الحاجب الحنبلي وهو صاحبه قائلاً : « ابن عبدالسلام أفقه من الغزالي »[٦].

---

(١) نقلاً عنه ، في النجوم الزاهرة : ٧/٢٠٨

(٢) البداية والنهاية : ١٣/٢٣٥

(٣) تاريخ علماء بغداد : ١٠٥

(٤) نفس المصدر : ١٠٦

(٥) و (٦) طبقات السبكي : ٥/٨١

وقال ابن العماد الحنبلي : « وبرع في الفقـــه ، والاصول ، والعربية ، وفاق الاقران والاضراب ، وجمع بين فنون العلم من التفسير والحديث ، والفقه ، واختلاف أقوال الناس ومآخذهم ، وبلغ رتبة الاجتهاد ، ورحل اليه الطلبة من سائر البلاد »[١] .

ومن ذلك ما نقله السبكي من كلام العـــلامة جمال الدين الحصيري (شيـخ الحنفية في الشام) فيه ، موجهاً الى السلطان الاشرف بدمشق .

« قال الحصيري : هذا رجل لو كان في الهند أو في أقصى الدنيا ، كان ينبغي للسلطان أن يسعى في حلوله في بلاده ، لتتم بركته عليه ، وعلى بلاده ، ويفتخر به على سائر الملوك »[٢] .

وأما اليافعي اليمني ، وهو من اشد المعجبين بالشيـخ ، فاندفع في عبارة حماسية طنانة يبالغ ويسرف في وصفه بكلام مرصوف مسجوع ، قال :

« سلطان العلماء ، وفحل النجباء ، المقدم في عصره على ســائر الاقران ، بحر العلوم والمعارف والمعظم في البلدان ، ذو التحقيق والاتقان والعرفان والايقان ... » الخ ، ثم قال في مكان آخر بشيء من الاعتدال :

---

(١) شذرات الذهب : ٣٠١/٥

(٢) طبقات السبكي : ٩٥/٥

« وهو من الذين قيل فيهم : علمهم أكثر من تصانيفهم ، لا من الذين عبارتهم دون درايتهم ، ومرتبته (في العلوم الظاهرة) مع السابقين في الرعيل الاول »[١] .

وهكذا افتتح السبكي ترجمته بمدحه واطرائه ولكن في شيء من اقتصاد الكلمات الوصفية ، قال : « شيخ الاسلام والمسلمين وأحد الائمة الاعلام ، سلطان العلماء ، إمام عصره بلا مدافعة ، المطلع على حقائق الشريعة وغوامضها ، العارف بمقاصدها ، لم ير مثله نفسه ولا رأى من رآه مثله علماء[٢] » ... الخ

هذا بعض ما قيل في الشيخ عز الدين ، في علمه وفضله ، ونبوغه وسموه في المكانة العلمية . وليس القائلون كلهم ، كما هو ظاهر ، ممن سلكوا مسلكه في الفقه ، أو تمذهبوا بمذهبه في العقيدة الكلامية . اذ فيهم من يخالفه في عقيدته الاشعرية كشيخ الاسلام الذهبي ، أو يختلف معه في مذهبه الفقهي كابن الحاجب الحنبلي ، وجمال الدين الحصيري .

فلا يقال ، والامر هذا ، انها مبالغات في المدح وإسراف في الثناء من أهل مذهبه وشيعته . واذا تركنا عبارة اليافعي الرنانة المسجوعة جانباً ، فاننا نوافق على ما جاء في كلامه من وصف لعلم

---

(١) مرآة الجنان : ٤/١٥٣

(٢) طبقات السبكي : ٧/٨٠

الشيـخ دقيق : « وهو من الذين قيـــل فيهم : علمهم اكثر من تصانيفهم ... الخ» . هذا وصف في الصميم ، فلم يترك لنا الشيـخ العزّ تصانيف ضخمة عريضة ، واكثرها رســـائل علمية إلا كتاب « الغاية في نهاية المطـــالب » (٥ أجزاء غير مطبوع) و « قواعد الأحكام » في الفقه و « مجاز القرآن » في علم البيان أو علوم القرآن» وليست كبيرة الضخـــامة ، ولكن ما لدينا من مطبوع تآليفه (ونقصد الكتابين الاخيرين) ينم عن غزارة علمه وسعة اطلاعه ، وعبارته فيهما – على إيجازها – تدل على غزارة معانيه في نفسه .

تلك كانت أقوال القائلين تنص على مكانة الرجل العلمية ، وهناك حوادث ووقائع تصور لنا منزلته في أعين الناس ، عامة وخاصة ، شعباً وملوكاً . ولقد سبق قولنا ان عالم مصر الحافظ المنذري تنازل له عن الافتاء . وكذلك رأينا بإيجاز في استعراضنا لسيرته كيف كان الملوك والسلاطين يقفون عند رأيه ، ويخضعون له ، في مكان آخر ، وشاهدنا عواطف أهل دمشق نحوه عند وفاته بمصر ، وسنطلع على الحوادث السائرة ومظاهر التبجيل فيما يأتي من الكلام .

هذا ، والشيـخ العزّ نفسه كان شاعراً بمنزلته العلمية ، كسائر عظماء العلم ، واثقاً بنفسه ، ويشير الى ذلك رفضه لعرض صـــاحب الكرك عليه ، عندما أراد هذا أن يستبقي

الشيخ عنده فقال : « بلدك صغير على علمي »[١] .

وهناك ناحية أخرى مجهولة من ثقافة الشيخ ، وهي تملكه لناصية البيان العربي وتأليفه فيه ، وقد مرّ عليها مترجموه مروراً قائلين باقوالهم : « وقرأ العربية » أو « نبغ فيها » وهكذا ، والشاهد على ذلك النبوغ والبراعة في العربية نجده في كتاب الشيخ الممتع العظيم « الايجاز في بعض أنواع المجاز » وهو أوسع من كتاب الشريف الرضي « مجاز القرآن » . وكذلك أسلوبه الصافي السهل المشرق يقدم خير برهان على حذقه العربية[٢] .

ولقد نختم الكلام فيما نحن فيه ببيتين طريفين وجدناهما على وجه كتاب للشيخ مخطوط وقائلهما رشيد الدين الفارقي الشهيد :

سما الشيخ عز الدين في العلم وارتقى   الى رتبة لم تدنُ منها الفراقد
فمن لم يجد عرفاً لعُرف قواعد[٣]   بناها ، فمزكوم ، وإلا فراقد[٤]

ومن طريف ماعثرنا عليه انه كان يضرب به المثل في السمو والنبوغ في العلم . قال الصفدي : « والناس يقولون في المثل : ماأنت إلا من العوام ولو كنت ابن عبد السلام »[٥] .

---

(١) طبقات السبكي ص : ٥/٨٣

(٢) انظر ما يأتي من الكلام على تآليفه وأسلوبه .

(٣) يشير الى كتابه القواعد الكبرى او « قواعد الاحكام في مصالح الانام »

(٤) مخطوط قواعد الاحكام بالظاهرية برقم : ٢٥٨ ؛

(٥) الوافي بالوفيات ، مصور طبوقمرائي : ٩ ، ١٩٥ ، وفوات الوفيات : ١ ، ٥٩٦

أثر أساتذته فيه :

ليس لدينا نصوص قاطعة تحدثنا عن أثر أســـاتذة العز ّ فيه ، ولا جرت العادة عند قدماء المؤرخين والمترجمين بصورة عامة ، أن يتحدثوا عن هذا . ولكن يمكننا أن نتبين هذا الاثر باستعراض حياة بعض أساتذته المعروفين ، والذين كان للعز بهم صلة أقوى وأطول ، ونجد أيضاً بعض إشارات عند العز ّ تدلنا على تأثره ببعض أساتذته .

وثبت أساتذته ليس بطويل . فسمع الحديث من الحافظ أبي محمد القاسم بن الحافظ الكبير علي بن عساكر (ت ٦٠٠هـ) وكان وريث والده وعمه الحافظ الصـــائن هبة الله في علوم الحديث ، ومن شيـخ الشيوخ عبد اللطيف بن اسماعيل البغدادي ، وأبي حفص عمر بن طبرزد (ت ٦٠٧ هـ) ، وحنبل بن عبد الله الرصافي (ت ٦٠٤ هـ) .

ودرس الفقه الشافعي على الشيـخ الامام فخر الدين بن عساكر (ت ٦٢٠ هـ) حتى تخرج عليه وأخذ علم الاصول عن سيف الدين الآمدي (ت ٦٣١ هـ) أحد الأئمة الاعلام في «الاصول» ، وحضر في البداية على بركات بن ابراهيم الخشوعي (ت ٥٩٧ هـ) والقاضي جمال الدين ابن الحرستاني (ت ٦١٤ هـ) .

ونرى أن لثلاثة من هؤلاء الاســـاتذة تأثير كبير في تكوين شخصية عز الدين الفقهية ، الاصولية ، والعملية الاجتماعية القضائية ، وهم الذين تتلمذ عليهم العزّ لمدة أطول واستفاد منهم أكثر .

فالاول وهو الفخر بن العساكر ، الذي تفقه عليه عز الدين ولازمه مدة طويلة ، يظهر ان له أثراً كبيراً في سلوكه الشخصي — عدا ما تأثر به في ميدان الفقه والافتاء — من صلاح وورع ، وتقى وقناعة . والشيخ الفخر اشتهر بعلمه وورعه وزهده . قال السبكي : « وهو آخر من جمع له العلم والعمل » وقال : « وكان إماماً صالحاً قانعاً عابداً ورعاً »[1] . وهـــذه أوصاف سنرى ان للعز حظاً منها كبيراً .

وكذلك يظهر تأثر العز به في سلوكه الاجتماعي والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فنجد عند كليهما مواقف مشـــابهة من بعض الســـلاطين في انكارهما عليهم بعض الامور . عرف عن الشيخ فخر الدين انه أنكر على المعظم عيسى بن الملك العادل تضمين المكوس والخمور ، فغضب عليه السلطان وسلب منه منصب التدريس في مدرسة التقوية (بدمشق) والصلاحية[2] بالقدس . وأنكر عز الدين على السلطان الاشرف مثل هذا الانكار ، وعلى الصالح اسماعيل

(١) طبقات الشافعية الكبرى : ٥/٦٦
(٢) نفس المصدر ٦٩

تحالفه مع الافرنج الصليبيين ضد أخيه نجم الدين بمصر، وغير ذلك، وكان أمّاراً بالمعروف ونهاءً عن المنكر.

ونقرأ في سيرة الشيخ الفخر أنه عرض عليه الملك العادل منصب القضاء بدمشق باستعطاف له وإلحاح عليه، ولكنه أبي، وعزم أن يهرب الى حلب بعيداً عن السلطان ومنصبه، فأعفاه السلطان في الاخير، ويتكرر هذا في حياة عز الدين باختلاف يسير، فهو يقبل القضاء بارادة منه، كما ذكره عامة المؤرخين، أو كرهاً كما قاله ابو الفداء[1]، ولكنه يستقيل منه بعد مدة قصيرة لم تتجاوز سنة.

وان فكرة الابتعاد عن منصب القضاء تقليدية (Traditional) اذ نرى في سير جميع العلماء الاتقياء الورعين انهم يتجنبونه حتى ولو أوذوا في هذا، كما كان من الإمام أبي حنيفة والامام مالك وغيرهما، ولكنه لايستبعد ان يكون لسيرة استاذ العز وقدوته المباشرة أثر فيه في هذا الشأن.

وأما الاستاذ الثاني، قاضي قضاة دمشق، الشيخ جمال الدين بن الحرستاني، فزيادة على زهده وورعه وعلمه وفضله، اشتهر بنزاهته في القضاء وجرأته في الحكم، ومساواته في الانصاف بين الراعي

---

(١) مختصر تاريخ البشر : ٣/١٦٩

والرعية ، ونلمس آثار ذلك السلوك الشخصي والقضائي بارزة في سيرة عز الدين .

قال السبكي فيه : « وكان من قضاة العدل رحمه الله »[١]، وقال أيضاً : « وكان صارماً عادلاً على طريقة السلف »[٢]. وأشاد سبط ابن الجوزي بصفاته ، قائلاً : « كان القاضي جمال الدين زاهداً ، عفيفاً ، ورعاً ، نزهاً لا ياخذه في الله لومة لائم . »[٣]

ومن أبرز صفات الشيخ عز الدين ، عدا زهده وعفته وورعه انه لم يأخذه في الله لومة لائم قط . وحياته حافلة بحوادث تصور لنا هذه الصفة فيه[٤] .

ولعل القاضي ابن الحرستاني بجريء حكمه ونزيه قضائه كان خير قدوة اقتداها العز في حياته ، وله في ذلك حوادث سائرة ومواقف رائعة .

روى ابو شامة المقدسي ان الملك المعظم عيسى طلب من القضاء الحكم في تركة ابن قوام — الذي كان يتاجر المعظم — مدعياً حقه فيها بحكم وكالته له في التجارة . ولم يستطع السلطان أن يقيم البيّنة على دعواه ، فطلب منه القاضي جمال الدين أن يحلف انه يستحقها ،

---

(١) طبقاته : ٨٤/٥ (٢) نفسه : ٨٥

(٣) الذيل على الروضتين : ١٠٧

(٤) انظر فصل « وصفه في طبعه ونفسيته »

فلم يحلف ، فلم يحكم له القاضي بشيء[١] .

ومنها حادثة أخرى أكثر جراءة وصراحة وهي هذه المرة مع الملك العادل .

كان بين بعض خواص العادل وبين رجل خصومة ، والقضية بين يدي القاضي جمال الدين ، فكتب السلطان كتاب توصية لمحسوبه في دمشق الى الشيخ القاضي ، فجاء الرجل اليه ودفع اليه الكتاب ، فسأله الشيخ ، ايش فيه ؟ قال : وصية لي . قال : احضر خصمك .

فاحضره والكتاب في يده ولم يفتحه . وادعى على الرجل فغلب الرجل على حامل الكتاب ، فقضى عليه ، ثم فتح الكتاب وقرأه ، ورمى به الى حامله وقال : «كتاب الله قد حكم هذا الكتاب» .

فمضى الرجل الى العادل وبكى وأخبره بما قال ، فقال : صدق ، كتاب الله أولى من كتابي[٢] .

ونلاحظ تكرر مثل هذه الحادثة في حياة عز الدين ، حين قضى على بعض امراء الاتراك المماليك حكمه العادل القاسي ببيعهم لحساب

---

(١) انظر الذيل على الروضتين ١٠٧

(٢) نفس المصدر : ١٠٧ و ١٠٨

بيت مال المسلمين ، لتصحيح وضعهم القانوني الشرعي في القصة المعروفة عنه .

ويأتي أخيراً الاستاذ الثالث وهو العالم الاصولي الشهير سيف الدين الآمدي الذي أسهم في تكوين شخصية العزّ الفقهية الاصولية بقسط كبير . وكان الآمدي غزالي عصره في الاصول والكلام والفلسفة واستاذ قرنه . قال السبكي عنه : الاصولي المتكلم ، احد أذكياء العالم[١] . وقال ايضاً : وتفنن في علم النظر وأحكم الأصلين ، والفلسفة وسائر العقليات وأكثرَ من ذلك[٢] الخ .

والشيخ عز الدين نفسه أشاد بذكره ، وأبان عن فضله عليه ، واعترف بتأثيره فيه .

قال السبكي : ويحكى أن شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام قال : ماسمعت أحداً يلقي الدرس أحسن منه ، كأنه يخطب ، وان غيّر لفظاً من « الوسيط »[٣] كان لفظه أمس بالمعنى من لفظ صاحبه[٤] .

---

(١) الطبقات : ١٢٩/٥

(٢) » »

(٣) كتاب الغزالي في أصول الفقه .

(٤) طبقات الشافعية : ١٣٠/٥

وقال: «لو ورد على الاسلام متزندق يشكك ، ماتعين لمناظرته غير الآمدي لاجتماع أهلية ذلك فيه»[١]. ثم قال أخيراً معترفاً له : «ما تعلمنا قواعد البحث إلا من سيف الدين الآمدي»[٢].

فهذا اعتراف صارخ من العز باثر استاذه فيه . وهو يظهر جلياً لمن يطلع على كتـــاب عز الدين « قواعد الاحكام » ببحثه المتقن الدقيق ومنهجه المنطقي القويم . واستطاع هو باقتباس منهج استاذه في البحث والاستخراج والتأليف ، ان يستفيد مما تراكم عنده من المعارف في الفقه ويستخرج منها قواعد أساسية أو يتلمسها في أحكام الشرع ، ثم يبني عليها نظرية متـكاملة شاملة في بناء الاحكام الشرعية على مصالح العباد ، ويؤلف أروع كتاب فيه .

أثره في تلاميذه :

كثر عدد تلاميذ عز الدين الذين تخرجوا عليه ، ولا نريد أن نحصيهم ، فليس بممكن استقصـــاءهم . وإنما نحاول ان نستعرض ســـيرة أو نواحي من سير بعضهم لنشاهد مدى تأثير العز في تلاميذه .

ولقد سبق قول ابن كثير (وقصده الطلبة من الآفاق) وكلام

---

(١) طبقات الشافعية : ٥/١٣٠

(٢) » » »

الذهبي » وتخرج عليه الأئمة » ومن بين هؤلاء التلاميذ الأئمة : شيخ الاسلام ابن دقيق العيد ، ويلقّب بسلطان العلماء . والامام علاء الدين ابو الحسن الباجي ، والحافظ أبو محمد الدمياطي،صاحب معجم في تراجم شيوخه وهو الذي خرج لعز الدين أربعين حديثاً عوالي[١] . والحافظ ابو بكر بن مسدي الأندلسي ، والشيخ شهاب الدين ابو شامة المقدسي المؤرخ الفقيه ، والعلامة أحمد ابو العباس الدشناوي ، والعلامة ابو محمد هبة الله القفطي ، والشيخ تاج الدين الفركاح ، والقاضي صدر الدين موهوب بن عمر الجزري ، والقاضي تاج الدين بن بنت الاعز وغيرهم[٢] .

واذا استعرضنا سيرة بعض من هؤلاء لمسنا أثر شخصية عز الدين فيهم بارزاً ، او بعبارة أخرى انه اوجد مدرسة له في عصره ،تقوم على اخلاص للعلم ونزاهة في العمل ، وشجاعة في الجنان ، وجرأة في الحق ، وحرية في القلب ؛ مدرسة الاتقياء والورعين ، فتأثر بها تلاميذه وبرزت في حياتهم وسيرتهم سمات هذه المدرسة على قدر إفادة كل واحد منها .

---

(١) فوات الوفيات : ٥٩٤/١ ، والاحاديث العوالي : هي التي يقل الرواة في اسنادها من السلسلة الاخرى للحديث العادية .

(٢) انظر تراجم بعض هؤلاء كأبي شامة ، الفركاح ، الجزري ،الباجي، القفطي ، في الجزء الخامس لطبقات السبكي .

ومن أقرب تلاميذه اليه وأوفره حظاً بالافادة منه شيخ الاسلام تقي الدين بن دقيق العيد . وكان إماماً فقيهاً أصولياً ، وقاضياً ممتازاً . وكان من تقديره لاستاذه وعرفانه لمكانته ان لقبه بـ «سلطان العلماء» فاشتهر به العز .

ونلاحظ في سيرة ابن دقيق العيد بعض الجوانب والمواقف تشبه الى حد كبير ما رأيناه أو سنراه في سيرة العز من زهد في المناصب ، وجرأة في قول الحق ، ودالة على السلاطين.

ومن ذلك عدم مخاطبته للسلطان إلا بقوله : (يا انسان) ، كما كان يخاطب به عامة الناس . فلا يخشاه ولا ينحله ألقاب الجبروت والعظمة[1] ، وهذا يشبه خطاب العز بن عبد السلام للصالح نجم الدين أيوب في يوم ابهته وزينته ، في احتفال العيد بـ (يا أيوب) ، وعدم تبجيله الملوك بصورة عامة .

وفي ميدان تصلبه في الدين ، وعنايته بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، نرى انه غيّر لباس القضاة من الحرير ـ الذي ابتدعوه ـ الى الصوف[2] ، ولا ننسى أن عز الدين أبطل لبس السواد عند خطبة الجمعة بجامع دمشق ، وكان الخطباء قد اتخذوه من قبل .

---

(١) انظر وحي القلم للرافعي ٣/٥٨

(٢) عصر سلاطين المماليك : ق ١٢ ج١/١٠٤

وموقفه من السلطان الناصر محمد بن قلاوون في حادثة معروفة تشبه تماماً موقف العز من الملك قطز في صد زحف التتـــار على الشام . وخلاصتها ان ابن قلاوون أراد أن يأخذ مالاً من الرعية لانفاقه على حملة الى بلادالشام ، فاحتاج في ذلك الى فتوى الشيخ ابن دقيق العيد فرفض قائلًا : لايجوز ذلك إلا بعد ان يحضر الامراء مالديهم من مال وحلي ، وعند أولادهم ونسائهم[1] .

ومن تلاميذه المبرزين قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الاعزّ ، وكان فقيهاً ، إماماً ، مناظراً ، بصيراً بالاحكام[2]... وامتحن في الدولة الاشرفية على يد الوزير ابن سلعوس ، ثم نجاه الله تعالى منه ، وعزل من القضاء[3] ، وهو الذي فوّض اليه عز الدين تدريس المدرسة الصالحية عند وفاته . وكان نائبه في الحـكم .

وقال السبكي فيه : « وكان يقال : انه آخر قضاة العدل ، واتفق الناس على عدله وخيره »[4]

فعدا تفقهه على شيخه ابن عبد السلام واستفادته بعبقرية أستاذه في فقه الشريعة نراه يتأسى به في سيرته في الحـكم والقضـــاء ،

---

(١) عصر سلاطين المماليك : ق ٢ ج١/١٠٤

(٢) انظر فوات الوفيات ١/٥٣٤

(٣) طبقات الشافعية ٦/٢

(٤) » » »

ومعاملته السلاطين والامراء ، بشدة وتصلب وجرأة في الحق كما عهد من الشيخ العز .

حكى السبكي انه سئل تاج الدين من قبل الملك الظاهر بيبرس في أمر ، فامتنع من الدخول فيه ، فقيل له : مر نائبك الحنفي – وكان قاضي القضاة ، وهو الشافعي ، يستنيب من شاء من المذاهب الثلاثة – فتصلب وامتنع من ذلك أيضاً . ولما لم يستطع الملك إخضاعه لرغبته ابتغى طريقاً أخرى ، فجدد مناصب القضاة الثلاثة الآخرين[1] .

وكان الامراء الكبار يشهدون عنده ، فلا يقبل شهاداتهم[2] لعدم توفر الاهلية المشروطة في الشرع فيهم ، ومعروف ان عز الدين أسقط شهادة وزير لاتيانه منكراً واستقال من القضاء احتجاجاً على مناصرة السلطان لوزيره في حادثة معروفة .

فهذا وذاك من المواقف والحوادث ، والمحنة ، والعزل من المناصب ، يشبه بما مر به الشيخ عز الدين ، استاذه ، في حياته .

ولا يقال انها صفات العصر الممتازة ، لا صفات العز التي تأثر بها تلاميذه ، لان القلة من هذا العصر هي التي تمثل هذه الصفات ،

---

(١) طبقات الشافعية : ١٣٤/٥

(٢) المصدر نفسه : ١٣٥

ونرى أغلبية العلماء يخضعون للملوك ، ويجارون الظروف ، ولا يتحدون الطغاة الفاسدين . ولذلك اذا امتاز أحدٌ بتلك الصفات وتمسك بها اشتهر واستفاض ذكره . هذا والعصر لا تتكون صفاته ولا تتشكل سماته إلا على أيدي موجهيه والمؤثرين فيه ، وعز الدين أحد هؤلاء ، بل أقوامهم وأشهرهم في عصره ، ولا فرق اذا كان تأثيره في تلاميذه مباشراً أو غير مباشر عن طريق مدرسته التي أوجدها في السلوك الاجتماعي للعلماء ، وفي الحكم والقضاء للقضاة .

تآليفه :

وقد ألف سلطان العلماء فأكثر من التأليف . واتقن وأجاد . وأشاد بذكره في هذا المجال فحول العلماء وكبار المؤلفين :

قال ابن كثير : « وله مصنفات حسان ، منها ... »[1].

وقال الذهبي : « وله التصانيف المفيدة »[2]

وقال ابو الفداء : « له مصنفات جليلة في المذهب »[3] .

ألّف العز بن عبد السلام في التفسير والحديث، والعقائد، والفقه،

---

(١) البداية والنهاية : ١٣/٢٣٥

(٢) برواية ابن تغري بردي عنه في النجوم الزاهرة : ٧/٢٠٨

(٣) مختصر تاريخ البشر : ٣ ٢١٥

والاصول ،والفتاوى ، والسيرة ، والتصوف ، وفضائل الاعمال ، ومؤلفاته في تلك العلوم وغيرهـــا تربو على الثلاثين ، وأكثرها مخطوط . ويظهر باستعراض اسمائها في فهارس الكتب ان الاغلبية منها رسائل صغيرة في موضوعات معينة بالذات . وعرف بعضها صاحب «كشف الظنون» ثم صاحب «ايضـــاح المكنون» وأخيراً استقصى بروكلمن تآليفه الموجودة في مكتبات العالم. هذا الى جانب بعض مؤلفـــاته العظيمة المطبوعة التي اتفقت الكلمة على جلالة شأنها وعظيم نفعها ، ككتاب قواعد الاحكام في مصالح الانام ، ومجاز القرآن .

ولقد بذلنا قصارى جهدنا في جمع أسماء كل ما ألفه الشيخ أو شرحه أو اختصره، ونص عليه مترجم له أو صاحب فهرس للمطبوع والمخطوط قديماً وحديثاً . ثم صنفناها حسب الفنون وحاولنا ، ما أمكننا ، التوفيق بين بعض الاسماء المختلفة يسير الاختلاف . فحذفنا التكرار الموجود عند بعض المؤلفين، وإفادة للباحثين اشرنا الى أمكنة المخطوط منها في مكتبات العالم[١] .

---

(١) واعتمدنا في هذا الجمع والاحصاء على : طبقات السبكي ، والبداية والنهاية ، وتاريخ علماء بغداد ، ومرآة الجنان من كتب التراجم والتاريخ . وكشف الظنون ، وهداية العارفين ، وايضـــاح المكنون ، وفهرس المخطوطات بالمكتبة الظاهرية ، ومعجم المطبوعات العربية والمعربة ، وفهرس المخطوطات المصورة ، وفهرس بروكلمن وذيله بالالمانية من فهارس الكتب. ورجعنا الى فهارس-

(١) في التفسير وعلوم القرآن :

١ ـ آ ـ أمالي في تفسير القرآن . فهرست دار الكتب المصرية ج ١ ص ٣٧

ب ـ كشف الاشكالات عن بعض الآيات . فهرست دار الكتب المصرية ج١ ص٥٨

ج ـ فوائد في تفسير القرآن (١٦٦ ورقة) منسوخ في سنة ٩٨٢ هـ . فهرس خزانة الكتب الخديوية بمصر ج١ و١٨٨

د ـ فوائد العزّ بن عبد السلام . فهرس دار الكتب المصرية ج ١ ص ٥٧

وهي أسماء مختلفة لكتاب واحد كما يظهر ، فقد جاء في وصف ب و ج : وهي أجوبة عن أسئلة مشكلة في القرآن . ويبدو أنه كتاب جليل إذ يبلغ ضخامته ٣٢٢ صحيفة ، وهو غير مطبوع.

٢ ـ آ ـ الاشارة الى الايجاز في بعض أنواع المجاز ، مطبوع بالآستانة سنة ١٣١٣ هـ

ب ـ مجاز القرآن : وفي غالب ظننا أنه نفس الكتاب المطبوع (الاشارة...) وهذه التسمية في مصادر قديمة

ـ مكتبة برلين ، والمتحف البريطاني ، والفهرس الصغير لاسكوريال ، ومكتبة باريس ، وفهرس دار الكتب المصرية ، وفهرس كتبخانة الخديوية .

كالسبكي وحاجي خليفة :

١ـ مكتبة سليم آغا ـ استنبول رقم ١٠١٦

٢ ـ المتحف البريطاني رقم ٨٣٤

ج ـ المجاز الى حقائق الاعجاز (اسم آخر لنفس الكتاب السابق)

Landb. Br, 503

(٢) الحديث :

٣ ـ مختصر صحيح مسلم

٤ ـ رسالة في شرح حديث « لاضرر ولا ضرار » .

(٣) العقائد :

٥ ـ ملحة الاعتقاد أو العقائد : رسالة صغيرة مطبوعة في طبقات السبكي ج ٥ ص ٩٢ ـ ٩٨ في ترجمة العزّ بن عبد السلام ، ومنها نسخة مخطوط في مكتبة ليبزغ رقم ٨٨١ وفي برلين رقم ٢٠٨٠

٦ ـ الفرق بين الاسلام والايمان :

١ـ فهرس مكتبة اسكوريال ج ٢ رقم ٢و١٥٣٦

٢ ـ فهرس دار الكتب المصرية ج٢ ص٢١و٢٣

٣ ـ مكتبة قيروان ١٨٤

٧ – الامام في بيان أدلة الاحكام المتعلقـة بالملائكة والمرسلين وسائر العالمين :

١ - مخطوط بجامعة استنبول، بخط نسخ بدون الاعجام ٥٤ ورقة ، ١٣×١٨ سم[1]

٢ - مخطوط بمكتبـــة برلين رقم ٤٧٨٧ ٤٢ ورقة .

٨ – كتاب الانواع في علم التوحيد :

١ - مكتبـــة برلين ٢٤٢٦ . ٢٣ ورقة ١٣×١٨ سم

٢ - المكتبة الظاهرية : ٥٢٠٧

(٤) الفقه والفتاوى :

٩ – كتاب الصلاة أو مقاصد الصلاة) وهي الرسالة التي ورد ذكرها بتنويه عظيم في ترجمة العز في طبقات السبكي ج ٥):

١ - مكتبة باريس ١١٧٨،٢

٢ - فهرس مكتبة اسكوريال ٦٧٩،٤

٣ - فهرس كتبخانة الخديوية ج ٧ ص٣

٤ - فهرس دار الكتب المصرية ج١ ص٥٣٩

---

(١) فهرس المخطوطات المصورة لفؤاد سيد ٢٤٩

١٠ – مقاصد الصوم :

فهرست اسكوريال الكبير ج٢ ، ١٥٣٦,٢

١١ – مناسك الحج :

فهرست اسكوريال الكبير ج٢ ، ١٥٣٦,٦

١٢ – أحكام الجهاد وفضله :

مكتبة برلين ٤٠٨٨ ، ٥٣ ورقة ،
١٣,٥ × ١٨,٥ سم ، ١٧ سطر .
وهو كتاب مهم كما يظهر من وصفه في فهرس
مكتبة برلين .

١٣ – ~~كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار~~ .

١٤ – الغاية في اختصار النهاية (في فروع الشافعية) وهو مختصر
لنهاية المطالب لإمام الحرمين الجويني . وللكتاب
خمسة أجزاء والموجود منها أربعة ١، ٢، ٣، ٥ أربعة مجلدات
بدار الكتب المصرية ، وهو كتاب جليل دلت على
قدرته كما قال صاحب ايضاح المكنون :

١– فهرس كتبخانة الخديوية ج ٧ ص ٣١
٢ – فهرس دار الكتب المصرية ج١ ص٥٢٦ .

١٥ – الجمع بين الحاوي والنهاية .

١٦ ـ الفتاوى الموصلية : ورد اسمه في فهرس برلين : تسعون مسئلة أو الاسئلة الموصلية :

١ـ مكتبة برلين ٤٩٨٦

٢ـ المكتبة الظاهرية ٦٩٦٢

٣ـ « « ٧٨٢٦ نسخة أخرى لنفس الفتاوى

١٧ ـ الفتاوى المصرية :

١ ـ مكتبةبرلين ٤٨١٥

٢ ـ فهرست دار الكتب المصرية ج١ ص٥٢٧

٣ ـ « كتبخانة الخديوية ج٧ ص٣١

(٥) أصول الفقه :

١٨ ـ آ ـ قواعد الأحكام في مصالح الأنام : مطبوع مرتين بمصر ، وسيأتي وصفه بالتفصيل . واسمه المعروف في المراجع القديمة ، القواعد الكبرى ، ومنه نسخ كثيرة في مكتبات العالم كما يلي :

ب ـ قواعد الشريعة الكبرى :

١ـ مكتبة غوتا ـ [illegible] ٩٤٨

٢ـ « « « ١٨١٧

٣ ـ ذيل المتحف البريطاني ٢١٣، ١٢٠١٣ منسوخ في سنة ٧٤٠ هـ

ج ـ القواعد الكبرى :

٤ ـ مكتبة احمد الثالث : (استنبول) رقم ١٠٨٨[1] ١٧٦ ورقة ١٨ × ٢٥سم

٥ ـ مكتبة احمد الثالث : (استنبول) نسخة أخرى : ١٠٨٩[2] ١٧٠ ورقة ١٧×٢٥ سم ، بقلم نسخ حسن

٦ ـ المكتبة الظاهرية ١١٩ ، منسوخ في سنة ٦٧٩ هـ

قواعد الأحكام في مصالح الأنام :

٧ ـ المكتبة الظاهرية ٤٢٥٨ منسوخ في سنة ٧٣٣ هـ

٨ ـ فهرس دار الكتب المصرية ج١ ص٥٣٣

٩ ـ مكتبة اسكندرية (مصر) فقه شافعي رقم ٣٣

د ـ القواعد في المصالح والمفاسد: مكتبة موصل ١٠٥،٨٢

---

(١) و (٢) فهرس المخطوطات المصورة بالجامعة العربية لفؤاد سيد ص ٢٤٩

١٩ - آ- القواعد الصغرى :

١ - مكتبة غوتا - ليدن ٩٤٧

٢ - ذيل المتحف البريطـــاني ص ١٥١

٩٨ ورقة $\frac{٣}{٤}$ ٧ × ١٠ انش ، ٢٧

سطراً مكتوب بخط صغير متقارب فارمي

نسخي ، منسوخ في سنة ٧٥٦ هـ

ب - الفوائد في مختصر القواعد :

٣ - المكتبة الظاهرية ، فقه شافعي ٦٠

ج - الفوائد في اختصار المقاصد :

٤ - مكتبة برلين - ٣٠١٣ ، ٢٩ ورقـة

$\frac{٢}{٣}$ ١١×١٥سم ١٤ سطراً

د - الأمالي في المصالح والمفاسد :

٥ - مكتبة برلين ٢٦٣٤ ، ٥٥ ورقة

٢٠ - شرح منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل

٢١ - آ- فرائد الفوائد وتعارض القولين لمجتهد واحد:

١ - فهرس دار الكتب المصرية ج١ص٥٢٧

٢ - مكتبة برلين ٤٣٥٩

ب ـ مبهج الرائد بالضوابط الفرائد (ولعله اسم آخر لنفس الكتاب) :

٣ ـ المكتبة الظاهرية ٢،٦٠

(٦) السيرة :

٢٢ ـ آ ـ بداية السؤل في تفضيل الرسول عليه السلام:

١ ـ مكتبة برلين ٢٤٢٦

٢ ـ مكتبة اسكوريال ٣،١٥٣٦

٣ ـ فهرس دار الكتب المصرية ج١ص٩٢

ب ـ رسالة في بيان تفضيل النبي على جميع الأنام:

٤ ـ فهرس دار الكتب المصرية ج١ ص١٨٣

ج ـ غايات الأصول فيما صح من تفضيل الرسول :

٥ ـ مكتبة اسكوريال ٥،١٤١١

٢٣ ـ قصة وفاة النبي ﷺ :

٦ ـ مكتبة برلين ٩٤١٤

(٧) التصوف :

٢٤ ـ حل الرموز ومفاتيح الكنوز[١] : (مطبوع بمطبعة

---

(١) طبع في مجموعة مع رسالة : فتح الرحمن ، رسالة الولي رسلان

جريدة الاســـلام ، مصر سنة ١٣١٧ هـ) ومنه نسخة مخطوطة في مكتبة رام پور ـ الهند رقم ١٠٣، ٣٣٥

٢٥ ـ مسائل الطريقة في علم الحقيقة ، المشتهر بالستين مسئلة[1] (مطبوع بمصر سنة ١٣٢٢ هـ)

٢٦ ـ رسالة في القطب والأبدال الاربعين .

(٨) فضائل الاعمال والعلوم المختلفة :

٢٧ ـ شجرة المعارف وأدلة الأحكام ، قال عنه السبكي : حسن جداً :

١ ـ مكتبـــة برلين ٢٣٠٤ ، ١٥١ ورقة

٢/٣ ١٦ × ١/٢ ٢٤ سم

٢ ـ مكتبة اسكوريال ١٥٣٦، ١

٢٨ ـ نهاية الرغبة في أدب الصحبة :

مكتبة باريس ١١٧٦، ٢٥

٢٩ ـ الفتن والبلايا والمحن والرزايا ، ولعله نفس الكتاب

---

(١) طبع في مجموعة مع : تحفة الاخوان ، لأحمد الدردير

الذي يرد اسمه في مصادر قديمة أخرى (فوائد البلوى والمحن) :

مكتبـــة اسكوريال ١٥٣٦،٧

٣٠ – ترغيب أهل الاسلام في سكنى الشام :

١ ـ المكتبة الظـــاهرية ٤٦٠٥ منسوخ في ١٢٤٦ هـ

٢ ـ المكتبة الظاهرية ، نسخة أخرى ٧٩١٤

٣ ـ مكتبة بيروت ١٧٨

٣١ – مجلس في ذم الحشيشة :

مكتبة برل (ليدن) ١٠٥٦،٢ .H

٣٢ – بيان أحوال الناس يوم القيامة .

٣٣ – مقاصد الرعاية[١]

٣٤ – نخبة العربية في ألفاظ الاجرومية في النحو[٢] .

٣٥ – ثلاثة وثلاثون أشعار[كذا][٣] في مدح الكعبة :

مكتبة برلين ٦٠٦٨

٣٦ – وصية الشيـخ عز الدين :

المكتبة الظـــاهرية ٥٢٥٨

---

(١) ايضاح المكنون .

(٢) » »

(٣) كذا ورد اسمه عند بروكلمن وفي فهرس مكتبة برلين ، وإلا فالصحيح « شعراً » .

وقد ذكر في بطاقات فهرس المخطوطات بالمكتبة الظاهرية « العماد في مواريث العباد » من بين مؤلفاته وليس له بل لعز الدين غيره[١] .

فهذه هي الآثار العلمية الكثيرة المتنوعة التي تركها لنا عز الدين . والقليل جداً منها مطبوع . وفيها رســـائل صغيرة في موضوعات خاصة ، وفيها ما هو جليل في موضوعه ، عظيم في نفعه ، كبير في ضخـــامته مثل « قواعد الاحكام » و « مجاز القرآن » و « الغاية » وغيرها .

ونريد هنا أن نلقي نظرة خاطفة على كتابيه الاخيرين الجليلين اللذين عدهما السبكي شاهدين على إمامته في العلوم الشرعية[٢] ونعطي إلماعة عنهما .

١ ـ قواعد الأحكام في مصالح الأنام :

هذا هو الكتاب الذي عرف بـ « القواعد الكبرى » في نصوص قديمة . وأول تسمية له بهذا الاسم الذي طبع به الكتاب وجدناه في نسخة مخطوطة في سنة ٧٣٣ هـ وهي موجودة بالمكتبة الظاهرية .

---

(١) وصها الاستاذ الباحث عمر رضا كحالة محافظ المكتبة الظاهرية فنقل هذا الخطأ في كتابه « معجم المؤلفين» وعد الكتاب من تصانيف العز . انظر الجزء الخامس ترجمة عبد العزيز بن عبد السلام .

(٢) انظر طبقاته : ١٠٣/٥

وهو اسم يلائم موضوع الكتاب ، ويكشف عنه بوضوح تام .
فالكتاب موضوع في تتبع المصـــالح للعباد فيما ورد لهم من أحكام الشرع ، ثم تأسيس الاحـكام الشرعيـة الاخرى على هذا الاساس .

وطبع اول مرة في شعبان سنة ١٣٥٣ ﻫ (نوفمبر ١٩٣٤) بعناية المكتبة الحسينية من نسخة متأخرة النسخ (سنة ١٢٣٢ﻫ) كما اشير اليه في آخر الكتاب.

وله طبعة أخرى – والاغلب انها الثانية ، ولم يرد بهـا تاريخ الطبع – بعناية المكتبة التجارية الكبرى . وجاء على وجه هذه الطبعة : (وروجعت على نسخة المرحوم محمود بن التلاميد الشنقيطي التي راجعها وصححها بخطه) .

وهي نسخة أو طبعة كثرت فيها الاخطاء رغم الادعاء ، والطبعة الاولى أصح . والطبعتان في جزأين ، تقعـان في حوالي ٤٣٠ صفحة .

واما موضوعه : فبيان القواعد الفقهية الـكلية ، وتسمى أمثالها في الاصطلاح القانوني (Principles of Law) المبادى[1] ، وهو مبني على فصول فقهية موضوعية يضع فيها مؤلفه الموضوع الفقهي عنواناً في رأس الفصل ، ثم يقسم الاحكام المتعلقة به ، ويفصلها

(١) المدخل الفقهي : م٢/٩٤٥

تفصيلاً فيه كثير من بيان حكمة التشريع . فهو أشبه بمدخل فقهي جليل[١] .

واما أهمية موضوع الكتاب فتظهر من كلمات العلامة الشهاب القرافي المالكي . قال : « وهذه القواعد مهمة في الفقه ، عظيمة النفع ، وبقدر الاحاطة بها يعظم قدر الفقيه وتتضح له مناهج الفتوى »[٢] .

ومن حيث قيمته التاريخية فهو أول كتاب في الموضوع لغير الحنفية وهم سبقوه بالتأليف فيه ، ثم تلاه كتاب القرافي (ت ٦٨٤ هـ) ، ثم ابن رجب الحنبلي (ت ٧٩٥ هـ) .

ولقد اعتمدنا في هذه الالماعة على رأي أحد كبار أساتذة الفقه – عدا قراءتنا للمؤلف – وهو حجة في هذا الباب .

اما حاجي خليفة ، فقال بعد ذكر الكتاب : « وليس لأحد مثله ، وهو اول من فتح هذا الباب كما ذكره السيوطي في أول (الاشباه) أي جمع القواعد فتبعه الآخرون »[٣] . وصحّ كلامه هذا في شأن غير الأحناف ، أما هم فقد سبقوا العزّ كما اتضح من كلام الاستاذ الزرقاء ، ولم نجد في كتاب السيوطي (الاشباه والنظائر)

---

(١) المدخل الفقهي : م٢/٩٤٥

(٢) من نفس المصدر ص ٩٣٦

(٣) كشف الظنون : ٢/١٣٥٩

ما نسبه حاجي خليفة اليه . وقد ذكر لنا السيوطي ايضاً أن كتب القاضي عز الدين محمد بن احمد بن جماعة الكتاني ثلاثة شروح ، وثلاث نكت على هذا الكتاب[١] .

وسنورد بعض المقتطفات من هذا الكتاب عند الكلام على أسلوبه ، ثم عند التعرض لآراءه الفقهية الاجتهادية .

٢ - الاشارة الى الايجاز في بعض انواع المجاز :

هذا هو الكتاب الثاني المطبوع من جليل مؤلفات الشيخ عز الدين . وقد سبق طبعه « قواعد الاحكام » إذ تم طبعه في رمضان سنة ١٣١٣ ، في المطبعة العامرة بالآستانة على نسخة من القرن ٧٠٩ ﻫ كما جاء في آخر الكتاب . ويقع في ٢٢٣ صفحة في قطع كبير ، وهو مطبوع بحرف دقيق ، وبتسلسل من غير فصل أو مقاطع . ويقع فهرس الموضوعات في ٨ صفحات.

وقد ذكر على وجه الكتاب : اختصره جلال الدين السيوطي وسماه مجاز الفرسان الى مجاز القرآن[٢] . ولعله لم يطبع .

ولم يشتهر تأليف عز الدين هذا ، مع سبق طبعه ، اشتهار الاول ،

---

(١) كشف الظنون : ١٣٥٩/٢

(٢) وهو كلام حاجي خليفة في كشف الظنون حين ذكر الكتاب ، ص : ١٥٩

لان العزّ الفقيه الاصولي أعرف عند الناس من العزّ عالم البيان .

واما موضوع الكتاب فظاهر باسمه بانه في علم المعاني والبيان ، ولو ان اسمه القديم المعروف (مجاز القرآن) اوضح في إبانة الغـــاية . إذ هو بحث عما ورد في القرآن الكريم من فنون المجاز . فله علاقة وثيقة بعلوم القرآن . وعلم معرفة الحقيقة والمجاز في القرآن من أجلّ العلوم ، إذ لا يمكن استنباط الاحكام الشرعيـة من نصوص كتاب الله إلا على أساس من معرفة هذا العلم متين . ولذلك اعتبره السبكي « شاهداً على امامته في علوم الشريعة » ومن عرف قيمة هـذا العلم ، واطلع على الكتـــاب ، في دقته وشموله وإحاطته ، لم ير في كلام السبكي شيئاً من الغلو في الثناء والاسراف في التقريظ .

ونزيد فنقول أن نبوغ العزّ وبراعته في العربية التي أشار اليها بعض مترجميه القدامى يشهد لها ذلك الكتاب ، وهو لشمول معالجته ودقة بحثه ، وحسن تقسيمه يفوق كتاب الشريف الرضي اللغوي الاديب ، بنفس الاسم[١] وبعد ، فهو يحتاج الى نشر جديد في طبعة عصرية محققة أنيقة .

وكم كنا نود أن نعرض بعض نماذج من هذا الكتاب ولكن ضيق مجال البحث يمنعنا عن ذلك .

---

(١) اطلعنا على طبعته بالفارسية والمنشور حديثاً في ايران ، بترجمة محمد باقر سبزواري دانشكاه « جامعة » طهران سنة ١٩٥١ .

أسلوبه في الكتابة :

رأينا أن نبحث في أسلوبه في الكتابة بمناسبة ذكر تآليفه .
ولطالما اتُّهم الفقهاء بالتعقيد في أسلوبهم وخلوه من الطرافة والاشراق دائماً . وكم نصّ الادباء والكتاب المحترفون على عباراتهم « وهو من كلام الفقهاء المرذول» .

والعصر الذي نترجم له لم تكن السليقة العربية فسدت فيه تماماً ، ولو بدأ التكلف والاقعار ، بأثر الحريري ومن تبعه ، سواء عند الادباء أو العلماء الفقهاء . وكذلك لم يغلِ الفقهاء في اسلوبهم للكتابة الايجاز الشديد الموصل الى الغموض والابهام الذي نلاحظه في القرون التي تلت ، ولو بدأت طلائعه .

فنجد عز الدين واضح الاسلوب ، صافي الكلام، مشرق البيان فيما عالجه من موضوعات فقهية وغير فقهية . ويحسن الرجوع للتثبت من هذا الى كتابه «قواعد الاحكام» . قال في هذا الكتاب في (فصل فيما يتعلق به الثواب والعقاب من الافعال) :

« لا يثاب الانسان ولا يعاقب إلا على كسبه واكتسابه ، ولا يكون إلا بمباشرة أو بتسبب ، قريب أو بعيد ، قال الله تعالى (إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وقال: (وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى) أي ليس له إلا جزاء سعيه. وقال: (وَلاَ تَكْسِبُ

كلُّ نَفْسٍ إلاّ عَلَيْها) ولان الغرض بالتكاليف تعظيم الإله بطاعته، واجتناب معصيته . وذلك مختص بفاعليته إذ لا يكون معظّم الحرمات منتهكاً لها بانتهاك غيره ، ولا منتهك الحرمات معظّماً لها بتعظيم غيره ، فكذلك لا تجوز الاستنابة في المعاصي والمخالفات[١] ... الخ » .

وهو يترسل في الكلام دائماً ، حتى أبى إلا ان يترسل في المناسبة التي تعوّد المتكلمون فيها بعصره ان يسجعوا وينمقوا ، واعني خطابة الجمعة ، الا اننا نجد عنده في بعض الاحيان أمثلة من السجع الخفيف اللطيف . قال في رسالته التي كتبها في عقيدته الى السلطان الاشرف :

« ومن انكر المنكرات التجسيم والتشبيه ، ومن افضل المعروف التوحيد والتنزيه ، وإنما سكت السلف قبل ظهور البدع ، فورب السماء ذات الرجع ، والارض ذات الصدع ، لقد تشمّر السلف للبدع لما ظهرت فقمعوها أتم القمع ، وردعوا أهلها أشد الردع »[٢] .

ويقول في نهاية هذه الرسالة بعدما أورد حججه وأفحم خصمه :

---

(١) ١/١١٤ . وستَرِد نصوص اخرى منه في مباحث آتية .

(٢) طبقات السبكي : جزء ٥ ص ٨٨ و ٩٠

« فمن ناضل عن الله ، واظهر دين الله ، كان جديراً بان يحرسه الله بعينه التي لا تنام ، ويعزه بعزه الذي لا يضام ، ويحوطه بركنه الذي لا يرام ، ويحفظه من جميع الأنام »[١] .

ونرى صوراً لهذا السجع غير المتكلف ، السهل المشرق في كتابه « قواعد الاحكام » أحياناً . فقال بمناسبة ذكر تفضيل الأتقياء الصالحين مصالح الآخرة على مصالح الدنيا ، معرباً عن أحوالهم :

« فسبحان من عرّف نفسه لهؤلاء من غير تعب ولا نصب » ولا استدلال ولا وصَب . بل جاد عليهم ، وسقاهم خالص وبله ، وصافي فضله ، فشغلهم به عما سواه . فلا همّ لهم سواه ، ولا مؤنس لهم غيره ، ولا معتمد لهم إلا عليه ، لعلمهم أنه لا ملجأ إلا اليه . فرضوا بقضائه ، وصبروا على بلائه ، وشكروا لنعمائه . يتسع عليهم ما يضيق على الناس ، ويضيق عليهم ما يتسع للناس . أدبُهم القرآن ، ومعلمهم الرحمن ، وجليسهم الديان ، وسرابيلهم الإذعان . قد انقطعوا عن الإخوان ، وتغرّبوا عن الأوطان . بكاؤهم طويل ، وفرحهم قليل »... الخ[٢] .

وكان لطبيعته الصوفية الرقيقة أثر كبير في أسلوبه من حيث لطافته

---

(١) طبقات السبكي ، جزء ٥ ص ٨٨

(٢) ١/٧ و ٨

ورقته . وهو لذلك كان كثير الاستشهاد بالشعر في كلامه ونوه به مترجموه . ويظهر أثر هذه الصوفية في النص الذي قدمناه بارزاً.
ويقول في رسالته المشهورة بـ « ملحة الاعتقاد » .

« والمخاطرة بالنفوس مشروعة في إعزاز الدين ، ولذلك يجوز للبطل من المسلمين أن ينغمر في صفوف المشركين . وكذلك المخاطرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونصرة قواعد الدين بالحجج والبراهين مشروعة . فمن خشي على نفسه سقط عنه الوجوب، وبقي الاستحباب ، ومن قال بان التغرير بالنفوس لا يجوز ، فقد بعد عن الحق ونأى عن الصواب . وعلى الجملة فمن آثر الله على نفسه آثره الله ، ومن طلب رضا الله بما يُسخط الناس رضي الله عنه وأرضي عنه الناس ، ومن طلب رضا الناس بما يُسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس . وفي رضا الله كفاية عن رضا كل أحد .

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب[1] »

واستشهد في هذه الرسالة القصيرة التي لا تتجاوز سبع صفحات بثلاثة عشر بيتاً من الشعر الرقيق الغزلي وشعر الأمثال والحكم.
ثم يعبر أسلوبه في الكتابة أصدق تعبير عن شخصيته القوية الصلبة[2]

---

(١) طبقات السبكي : ٩١/٥

(٢) يراجع فيذلك رسالته المذكورة باكملها في طبقات السبكي : ٨٢/٥

والصوفية المشرقة . كتب عند استلامه رسالة شديدة اللهجة من السلطان الاشرف في نهاية المراسلات في فتنة الحنابلة ، يجيبه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) . أما بعد احمد الله الذي جلت قدرته ، وعلت كلمته ، وعمت رحمته ، وسبقت نعمته ، فان الله تعالى قال لأحبّ خلقه اليه وأكرمهم لديه : (وإنْ تُطِعْ أكْثَرَ مَنْ فِي الأرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ . إنْ يَتَّبِعُونَ إلا الظَّنّ وَإنْ هُمْ إلاّ يَخْرُصُون) ، وقد أنزل الله كتبه ، وأرسل رسله لنصائح خلقه ، فالسعيد من قبل نصائحه وحفظ وصاياه ... »[1]

واذا كان أسلوب المرء في الكتابة وطريقة تعبيره يعكس نفسيته وأسلوبه في الحياة ، وهو الصحيح ، فأسلوب عز الدين خير برهان على ذلك ، وأصدق دلالة على شخصيته القوية الصلبة ، اللطيفة الرقيقة .

نظرات الفقهية الاجتهادية :

لقد عرفنا الشيخ العزّ فقيهاً بارعاً وأصولياً نابغة ، ووقفنا على انه بلغ رتبة الاجتهاد على اقوال البعض . ونحاول هنا أن

---

(٣) طبقات السبكي : ٥/٩٠

نتلمس هذا الرأي في ضوء النصوص وأقوال الرجل . ونعطي فكرة موجزة عن ميزاته في فقه الشريعة الاسلامية الخالدة ، وتعمقه وابتكاره فيها .

ومن تتبع كتابات عز الدين رأى انه رزق عقلاً كبيراً ، وذهناً ثاقباً ، ينفذ الى بواطن الأمور وحقائق الأشياء ، ولا يقف على المظاهر ولا يضيع في شتات الألوان . وصَقَل حضوره على سيف الدين الآمدي المتكلم الأصولي وتلمذته له ، هذه البصيرة الفقهية وهذبها ، وزادها نفاذاً وتركيزاً . فينفذ نظره من بين مئات المسائل وألوف الأحكام الشرعية الى لبها وركائزها ، فيستخرج منها قواعد كلية ، تجرى من أحكام الشرع المتعددة المتنوعة كثيرة التعدد والتنوع مجرى الدم من سائر الاعضاء .

ولقد علمنا انه أسبق علماء المذاهب الفقهية الكبرى - غير الحنفي - في وضع « القواعد الكلية » (Principles) في الفقه . وكتابه فيها من أشهر وأهم المؤلفات في هذا الموضوع .

نظرية المصالح :

واختلف العلماء في تعداد هـــذه القواعد الكلية من مئات الى عشرات الى خمسة قواعد كلية جامعة . أما سلطان العلماء ابن عبد الســـلام في كلمات السيوطي : « رجع الفقه كله الى اعتبار

المصـــالح ودرء المفاسد »[١] .

وهذه ملاحظة صائبة . فلا نجد في كتاب الشيخ المعروف « بقواعد الأحكام ... » إلا قاعدة واحدة (أي بناء الاحكام الشرعية على مصالح العباد) يدور حولها الكتاب ويثبتها المؤلف بتطبيقها في المئات بل الألوف من المسائل .

وهـــذه النظرية قائمة على الحديث النبوي المعروف (لا ضرر ولا ضرار[٢]) واعتبرها المالكية والحنفية قبله في كثير من الاحكام الفرعية . فلم يكن مبتكراً في الالتجاء اليها في بناء الاحكام . وإنما ابتـكاره في أنه ألقى اوسع ما يمكن من الضوء عليهـــا ، واظهر باستقرائه جريانها في مســائل لا تحصى ، واحكام لا تعد ، اصليّها وفرعيّها . حتى استطاع أن يرجع الفقه كله الى هذه القاعدة الشاملة الجامعة الاصيلة « اعتبار المصالح ودرء المفاسد » .

قال ،وهو يبدأ ببيان مقاصد كتابه (قواعدالاحكام) : «والشريعة كلها مصالح : اما تُدرأ مفاسد ، أو تُجلب مصالح . فاذا سمعت الله يقول : (يَا أَيُّها الذِينَ آمَنُوا) فتأمّل وصيته بعد ندائه ، فلا تجد إلا خيراً تحثك عليه ، أو شراً يزجرك عنه ، أو جمعـاً بين الحث والزجر . وقد أبان في كتابه ما في بعض الاحكام من

---

(١) انظر الاشباه والانظار : ٧٦

(٢) وكتب العز رسالة في شرحه ، انظر تآليفه .

المفاسد حثاً على اجتناب المفاسد ، وما في بعض الاحكام من المصالح حثاً على إتيان المصالح »[١].

ويقدم سنداً لمبدأه هـذا من القرآن جامعاً . فيقول :

« وأجمع آية في القرآن للحث على المصالح كلها ، والزجر عن المفاسد بأسرها قوله تعالى : (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .) » . ثم يشرح الآية بطريقة لغوية تجعل نظريته محيطة بالحياة والاحكام كلها[٢] .

أما كيف يهتدي المرء الى معرفة المصالح ليأتيها والمفاسد ليتجنبها ، إذا لم يكن هنالك نص من الكتاب أو السنة وغيرهما من أدلة الشرع ، فيدلنا الشيخ على سبيله قائلاً :

« ومن تتبع مقاصد الشرع في جلب المصالح ودرء المفاسد حصل له من مجموع ذلك اعتقاد أو عرفان ، بأن هذه المصلحة لا يجوز إهمالها ، وان هذه المفسدة لا يجوز قربانها وان لم يكن فيها إجماع أو نص أو قياس خاص . فانّ فهم نفس الشرع يوجب ذلك . ومثال ذلك ان من عاشر انساناً من الفضلاء الحكماء

---

(١) ٩/١

(٢) ١٦٠/٢

العقلاء وفهم ما يؤثره ويكرهه في كل ورد وصدر ، ثم سنحت مصلحة أو مفسدة لم يعرف قوله فيها ، فانه يعرف بمجموع ما عهده من طريقته وألفه من عادته أنه يؤثر تلك المصلحة ، ويكره تلك المفسدة »[1] .

ومرة أخرى يؤكد نظريته قائلًا : « ولو تتبعنا مقاصد ما في الكتاب والسنة لعلمنا ، أن الله امر بكل خير ، دقّه وجله ، وزجر عن كل شر دقّه وجله ، فان الخير يعبّر به عن جلب المصالح ودرء المفاسد ، والشر يعبّر به عن جلب المفاسد ودرء المصالح . وقد قال الله تعالى : (وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهْ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهْ)[2] .

وهذه هي نظرته الاجتهادية التي فاق بها الأقران ، واستحق بها رتبة الاجتهاد في كلام البعض ، وامتاز بها في عصره وبعد عصره .

وكان الى جانب هذا حر الفكر ، واقعي النظر ، منطقي التعليل والتقسيم .

---

(١) قواعد الاحكام : ١٦٠/٢

(٢) « « «

حريته الفكرية : وهي التي عبر عنها السيوطي قائلاً : « ثم كان في آخر عمره لا يتعبد بالمذهب ، بل اتسع نطاقه وأفتى بما أدى اليه اجتهاده » .

ونلمس ذلك في كلامه عن الانتقال من تقليد إمام الى تقليد إمام آخر ، قال :

« ومن قلد إماماً من الأئمة ، ثم أراد تقليد غيره ، فهل له ذلك ؟ فيه خلاف ، والمختار التفصيل . فان كان المذهب الذي أراد الانتقال اليه مما لم ينقض فيه الحكم ، فليس له الانتقال الى حكم[1] يجب نقضه . فانه لم يجب نقضُه الا لبطلانه . فان كان المأخذان متقاربين جاز التقليد والانتقال ، لان الناس لم يزالوا من زمن الصحابة الى ان ظهرت المذاهب الاربعة يقلدون من اتفق من العلماء ، من غير نكير من أحد يُعتبر إنكاره . ولو كان ذلك باطلاً لأنكروه .... وهذا مما لا يرتاب فيه عاقل » .

ثم يتابع ويندد بهؤلاء الذين لا يُعملون العقل ، ومذهبهم الجمود والتقليد الاعمى . يقول :

« ومن العجب العجيب ان الفقهاء المقلدين يقف احدهم على ضعف مأخذ إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعاً ومع هذا يقلده فيه ،

---

(١) هكذا في النسخة المطبوعة ، ولعل الصواب : الى مذهب يوجب نقضه .

ويترك من الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة لمذهبه ، جموداً على تقليد إمامه ؛ بل يتحلل لدفع ظواهر الكتاب والسنة ويتأولهما بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالاً عن مقلّده . وقد رأيناهم يجتمعون في المجالس ، فاذا ذكر لأحدهم في مسئلة خلاف ما ، وظن نفسه عليه ، تعجب غاية التعجب ، من غير استرواح الى دليل ، بل لما ألفه من تقليد إمامه ، حتى ظن ان الحق منحصر في مذهب إمامه . (وهذا) أولى (بالتعجب) من تعجبه من مذهب غيره . فالبحث مع هؤلاء ضائع مفوض الى التقاطع والتدابر من غير فائدة يجديها . وما رأيت أحداً رجع عن مذهب إمامه اذا ظهر له الحق في غيره . بل يسير عليه بضعفــــه وبُعده . فالاولى ترك البحث مع هؤلاء الذين اذا عجز أحدهم عن تمشية مذهب إمامه ، قال : لعل إمامي وقف على دليل لم أقف عليه ، ولم أهتد اليه . ولم يعلم المسكين ان هذا مقابَل بمثله ، ويفضل لخصمه ما ذكره من الدليل الواضح والبرهان اللائح .

فسبحان الله ما أكثر من أعمى التقليد بصرَه ، حتى حمله على مثل ما ذكر ، وفقنا الله لاتباع الحق أينما كان ، وعلى لسان من ظهر »[1] .

وعملاً بهذا – اتباع الحق أينما كان وعلى لسان من ظهر – خالف

---

(١) قواعد الاحكام : ٢/١٣٥ و ١٣٦

الإمام الشافعي ، إمام مذهبه ، في كثير من الاحيان .

ومن ذلك مسألة تقليد الحاكم المجتهد لمجتهد آخر، وقد منعه الامام الشافعي وغيره ، وأجازه الامام أبو حنيفة . وأخذ عز الدين بقول أبي حنيفة .

واحتج له بقوله : « هـــذا ظاهر متجه اذا قلنا كل مجتهد مصيب »[١] .

ومنه « انه اذا ادعى السوقة على الخليفة أو على عظيم من الملوك، بانه استأجره لكنس داره ، وسياسته دوابه ، فالامام الشـــافعي يقبله ، وهذا غاية في البعد ومخالفة الظاهر »[٢].

نظرته الواقعية : وفهمه هذا العميق لروح الشريعة وطبيعتها جعله واقعي التفكير فيما يُصدره من الاحكام والفتاوى ، ولا يتمسك بالظواهر والقواعد النظرية ، مع ملاحظة ماعرف به من الصلابة في الدين وتقوى الله .

قال وهو يعرض الأمثلة للمستثنيات من القواعد الشرعية العامة في العبادات ، ثم المعاملات وغيرها : « لو عمّ الحرام الارضَ بحيث لا يوجد فيها حلال ، جاز أن يستعمل من ذلك ما تدعو اليه

---

(١) قواعد الاحكام : ١٣٦/٢

(٢) نفس المصدر : ١٠٦/٢

الحاجة ولا يقف تحليـل ذلك على **الضرورات**[1] لانه لو وقف عليها لأدى ذلك الى ضعف العباد ، واستيلاء أهل الكفر والعناد على بلاد الاسلام . ولا يقطع عن الحرف والصنائع والاسباب التي تقوم بمصالح الأنام »[2] .

وهو اذا أراد أن يثبت فكرة أو ينتصر لقـــاعدة أكثرَ من ضرب الأمثلة ، بحيث تتضح جوانب الفكرة ، ويظهر عموم القـــاعدة . كما يظهر بالنظر الى ما نحن فيه من الكلام (انظر من صفحة ١٢٨ الى ١٦٠ من كتابه قواعد الاحكام، الجزء الثاني) .

تعليله المنطقي : امتـــاز الفقهاء الاحناف بتعليلهم المنطقي لأحكام الشرع واشتهروا به . وربما عللوا لكل حكم فرعي ، واحتجوا بالأدلة العقلية مع وجود أدلة نقلية من نصوص الكتاب والسنة . ولم يقصر في ذلك غير الحنفية ، وبصورة خاصة الشافعية الذين كثيراً ما احتجوا بالعقل والمنطق بجانب الأدلة النقلية . أما الشيخ عز الدين فنراه يعلل للقواعد الشرعية الأســـاسية بحيث يظهر فيها حكمة التشريع . وينقض ما خالف هذه الحكمة الشرعية

---

(١) « الضرورات » في مصطلح الفقه هي ما يحتاج اليه لحفظ : الدين والنفس والعقل والنسل والمال . اما « الحاجيات » فهي دون ذلك ، وفوق التحسينات أو الكماليات من حاجات المعيشة .

(٢) قواعد الاحكام : ٢/١٥٩ – ١٦٠

الفلسفية . قال في (فصـــل في ما يتعلق به الثواب والعقاب من الافعال) :

« وقد ظن بعض الجهلة أن المصاب مأجور على مصيبته ، وهذا خطأ صريح ، فان المصائب ليست من كسبه مباشرة ولا تسبب بها ؛ فمن قتل ولده ، أو غصب ماله ، أو أصيب ببلاء في جسده فليست هـــذه المصائب من كسبه ولا تسببه حتى يؤجر عليها ، بل إن صبر عليها كان له أجر الصابرين ، وإن رضي بها كان له أجر الراضين ، ولا يؤجر على نفس المصيبة ، لانها ليست من عمله . وقد قال تعالى : (إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُون) . كيف ومصائب الدنيا عقوبات على الذنوب، والعقوبة ليست ثواباً؟! ويدل على ذلك قوله تعالى : (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) وقوله عليه السلام : « لا يصيب المؤمن من وصب ولا نصب حتى الهم يهمه ، والشوكة يشاكها إلا كفر به من سيئاته » ، فيحمل قوله عليه السلام : « من عزّى مصاباً فله مثل أجره » على تقدير : فله مثل أجر صبره ، لقوله تعالى: (وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى)[1] ... » الخ .

ويدل كذلك على دقة نظره وعمق فهمه ما قاله في (فصل في اختلاف الآثام باختلاف المفاسد) :

---

(١) قواعد الاحكام : ١١٥/١

« يختلف إثم المفاسد باختلافِها في الصغر والكبر ، وباختلاف ما تفوته من المنافع والمصالح . فيختلف الإثم في قطع الاعضاء وقتل النفوس ، وإزالة منافع الأعضاء باختلاف الأعضاء . فليس إثم من قطع الخنصر والبنصر من الرجل كإثم من قطع الخنصر والبنصر من اليد ، لما فوّته من منافعها الدينية والدنيوية . وسواء قطع ذلك من نفسه او من غيره . وليس من قتل فاسقاً ظالماً من فساق المسلمين بمثابة من قتل إماماً عدلاً أو حاكماً مقسطاً أو والياً منصفاً لما فوّته على المسلمين من العدل والإقساط والانصاف[1] ... » الخ .

وهكذا تميز على أقرانه ومن جاء بعده ، بنظرته الى الشرع الشاملة العميقة ، الواقعية المنطقية . أما نظراته الفقهية في فروع المسائل وميزته فيها ، فتظهر من الرجوع الى فتاواه (وهي غير مطبوعة) ، وقد ذكر السبكي نخبة منها في فصل خاص بعد ترجمته[2] .

تصوف :

مرّ بنا الشيخ عز الدين عالماً فقيهاً أصولياً ، وخطيباً قاضياً ،

---

(١) قواعد الاحكام : ١١٠/١ وما بعدها

(٢) انظر طبقاته : ١٠٣/٥

والآن نريد أن نستعرض جانباً آخر هاماً من جوانب حياته ، وهو تصوفه .

وهذا موضوع شائك إختلفت فيه مواقف مترجميه . فمنهم من أشار الى تصوفه ومنهم من أهمله ، ثم الذين أشاروا اليه ، ذكر بعضهم جميع جوانب الموضوع وأفاضوا فيه كاليافعي اليمني ، وأصحاب الطبقات الصوفية كالنبهاني ، والكوهن الفاسي ، صاحب الطبقات الشاذلية . وبعضهم اقتضبها ، كالسبكي ، فلم يشر الى حضور الشيخ « السماع » ، خلاف البعض الآخر الذين نصوا على انه كان يحضر السماع ، ويرقص ويتواجد . ونحن باحثوه فيما يأتي ناشدين التثبت والصحة .

طريقتـــه : ذكر السبكي نقلاً عن القاضي عز الدين الهكاري (تلميذ الشيـخ) ، ان الشيـخ عز الدين لبس خرقة التصوف من الشيخ شهاب الدين السهروردي واخذ عنه[١] ، فطريقته «سهروردية» ، ولكن لا نعرف متى كان مقابلته للشيخ السهروردي ولبسه الخرقة منه ، والذي نعرف ان السهروردي حضر الى دمشق من بغداد عدة مرات ، وآخر مرة حضرها كان في سنة ٦١٢ هـ في رمضان كما ذكرهـــا أبو شامة ، ورجع في شوال ، فلعل الشيخ العزّ بايع السهروردي في هذه السنة ، وعمره إذ ذاك خمس وثلاثون ، وهو

---

(١) طبقات السبكي : ٨٣/٥

منته من الدرس والتحصيل ، مكتمل السن ، ومتهيأ لتلقي المعارف الباطنية ، كما يسمونهـا ، وتنمية ملكاته الروحية ، وتصفية قلبه .

ثم بعد ذهابه الى مصر واستقراره بها اتصل بالشيـخ أبي الحسن الشاذلي صاحب الطريقة الشاذلية ، وصاحبه . ونقل بعضهم انه بايع في الطريقة الشاذلية أيضاً[١] .

وسواء أخذ عز الدين الطريقة من الشيـخ الشاذلي أو لا ، فلا يشك انه كانت بينهما صحبة ، وكان كل منهما يحب صاحبه ، ويعترف له بالفضل . لان الاول إمام عصره في الفقه وعلوم الشريعـة ، والثاني شيـخ زمانه في السلوك ، وعلوم الطريقة . ومما يذكر في هـذا المجال انه اجتمع مرة بالشيـخ الشاذلي جماعة من كبار العلماء ، وفيهم الشيـخ عز الدين ، في حلقة تقرأ فيها رسالة « القشيري » المعروفة . فتكلم الشيـخ الشاذلي على طلب من الحضور في مواضيـع من علم التصوف في شرح الرسالة ، فقال الشيخ عز الدين ، وقد انزاح من موضعه احتراماً للشاذلي : « اسمعوا هذا الكلام الغريب ، القريب العهد بربه »[٢] .

اما تقدير الشيـخ أبي الحسن الشاذلي وحبه لعز الدين فيظهر من

---

(١) طبقات الشاذلية الكبرى : ٥٤

(٢) مرآة الجنان : ١٤٢/٤ ، وانظر طبقات السبكي .

قوله : « ما على وجه الارض مجلس في الفقه أبهى من مجلس الشيـخ عز الدين بن عبد السلام »[١] .

تفنيد الكلام عن سماعه ورقصه : يثير هذا العنوان استغراباً في النفس ، ولكن لم يكن لنا من اختياره بد ، إذ بعض كبار مترجمي عز الدين ، كشيخ الاسلام الذهبي ، والكتبي ، واليافعي ، وغيرهم نصوا عليه . ومع احترامنا لهؤلاء الائمة الاعلام لقد ارتبنا في الامر فبحثنا في حقيقـــة الامر ، ووصلنا الى صحيـح معرفة ، وصادق أخبار . ولو كنا اكتفينا بالنقل من هؤلاء المؤرخين ، كما نقله غيرنا من متأخري العلماء لجزنا عن الصواب ، وظلمنا الحقيقة. وفيما يلي عرض تلك الاقوال ثم مناقشتها :

قال الذهبي : « كان يحضر السماع ويرقص »[٢] .

وقال الكتبي : « كان يحضر السماع ويرقص ويتواجد »[٣] .

وقال السيوطي نقلًا عن القطب اليونيني : « كان يحضر السماع ويرقص فيه »[٤] .

وأما اليافعي فبعدما نص : « انه كان يحضر السماع ويرقص »

---

(١) طبقات الصوفية للشعراني : ٦/٢ ، حسن المحاضرة : ١٧٣/٢

(٢) بنقل إبن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب : ٣٠٢/٥

(٣) فوات الوفيات : ٥٩٥/١

(٤) حسن المحاضرة : ١٧٣/٢

استرسل في التعقيب عليه والدفاع عن السماع في شدة وحماس ، محتجاً بفعل الشيخ في زعمه[١] .

ونرى أن الذي أرسل هذا القول شيخ الاسلام الذهبي ، وهو اكتفى بذكر سماع عز الدين ولم ينص على الرقص والتواجد ، ثم الذين نقلوا منه بعد ذلك أضافوا نسبة الرقص اليه ، وكاد اليافعي ان يغلب بحجته وحماسه لولا النصوص من كلام عز الدين نفسه تنقض ما قاله هو وغيره . فبهذه وحدها نستطيع أن نعطي الكلمة الاخيرة في الموضوع .

تحدث الشيخ عز الدين في كتابه « قواعد الاحكام » عن السماع بمناسبة الكلام على مراتب أهل المعـــارف ، وألحقه الحديث عن الرقص والتواجد . فذكر للسماع خمسة أنواع ، وقسم أهلها على ترتيب هذه الانواع ، وأولها سماع القرآن وثانيها المواعظ والتذكير وثالثها سماع الحداء والنشيد والاشعـــار ، والرابع سماع المطربات المختلف في تحليلها كسماع الدف والشبابات ، وقال عن هذا الاخير : « فهذا ان اعتقد تحريم ذلك فهو مسيء لسماعه ، محسن بما يحصل له من المعارف والاحوال . وان اعتقد إباحتها تقليداً لمن قال بها من العلماء ، فهو تارك الورع باستماعها ، محسن بما حضره من المعارف والأحوال لما لناشئة عنها » .

(١) انظر مرآة الجنان : ١٥٤/٤

أما النوع الخامس للسماع ، وهو مايفهم بالكلمة عامة عند اطلاقها فقال عنه :

« الرتبة الخامسة ، من تحضره هذه المعارف والاحوال عن سماع المطربات المحرمة عند جمهور العلماء ، كسماع الاوتار والمزامير ، فهذا مرتكب لمحرم . ملتذ النفس بسبب محرم ، فان حضره معرفة وحال تناسب تلك المعرفة ، كان مازجاً للخير بالشر ، والنفع بالضر ، مرتكباً الحسنات والسيئات . ولعل حسناته لا تفي بسيئاته . فان انضم الى ذلك نظر الى مطوب لايحل النظر اليه ، فقد زادت شقوته ومعصيته »[١].

وهكذا أوضح لنا الرجل نفسه الموضوع بدقة وتفصيل، ثم لخص ما قاله ، منددا بالمنحرفين من أهل الرتبة الخامسة. قال:

« وعلى الجملة ، فسماع الحداء والنشيد والاشعار بدعة لابأس بسماع بعضها . وأما سماع المطربات المحرمات فغلط من الجهلة المتشيعين المتشبهين المجترئين على رب العالمين . ولو كان ذلك قربة كما زعموه لما أهمل الانبياء أن يفعلوه ، ويعرّفوه لاتباعهم وأشياعهم، ولم ينقل ذلك عن أحد من الانبياء ، ولا من أكابر الاولياء ، ولا أشار اليه كتاب من الكتب المنزلة من السماء وقد قال الله تعالى:

---

(١) قواعد الاحكام : ١٨٢/٢-١٨٣

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا) ولو كان السماع بالملاهي المطربات من الدين لبيَّنه رسول رب العالمين ، وقد قال عليه السلام : (والذي نفس محمد بيده ! ما تركت شيئاً يقربكم من الجنة ويباعدكم من النار إلا أمرتكم به ، وما تركت شيئاً يقربكم من النار ويباعدكم من الجنة إلا نهيتكم عنه) »[1] .

وبعد هـذا الكلام الصريح القاسي من عز الدين نفسه لا يبقى أي مجال للمناقشة وتنتقض بنصه هو أقوال الذين نسبوا اليه السماع الصوفي .

وبعد ، ففي الموضوع خلاف بين علماء الامة ، فطائفة من علماء المتصوفة جوّزوه ، ولهم حجج وعليهم ردّ ، ولسنا بصدد ذلك إنما أردنا أن نكون في دراستنا موضوعيين · فنفينا عنه ما لا يوافق اتجاهه المتشدد في الدين . ولعله كان له مشاركة في السماع من النوع الثالث ، هذا الذي يسميه « بدعة لا بأس بسماع بعضها » وعرفنا فيما سبق ميله الى رقيق الشعر الصوفي واستشهاده به في كتاباته ، فضخّم مترجموه ، من الصوفية بصورة خاصة ، هذه الحقيقة ونسبوا اليه ما نسبوا .

وأما موضوع الرقص والتواجد فمناقشته أهون بكثير من السماع .

---

(١) قواعد الاحكام : ١٨٣/٢

ولا ندري كيف نسَب اليــــه من نسبه ، مع ذمه للرقص وأهله بصراحة وشدة قال :

« وأما الرقص والتصفيق فخفـــة ورعونة ، مشبهة لرعونة الإناث ، لا يفعلها إلا راعن أو متصنع كذاب، كيف يتأتي الرقص المتزن بأوزان الغناء بمن طاش لبّه وذهب قلبه . وقد قال عليه السلام : (خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم) ولم يكن أحد من هؤلاء الذين يُقتدى بهم يفعل شيئـاً من ذلك . وإنما استحوذ الشيطان على قوم يظنون أن طربهم عنـد السماع إنما هو متعلق بالله عز وجل ، ولقـــد مانوا فيما قالوا ، وكذبوا فيما ادعوا .... »الخ[1] . وزاد قائلًا : « ومن هاب الإله ، وأدرك شيئاً من تعظيمه ، لم يتصور منه رقص ولا تصفيق . ولا يصدر التصفيق والرقص إلا من غبي جاهل ، ولا يصدران من عاقل فاضل ... »[2] الخ .

وهذا الكلام يلائم اتجاه عز الدين وطبعه ، فقد اشتهر بتصلبه في الدين ، وإبطاله للبدعات . وبعد ، فلا يمكن استساغة أقوال الذين نسبوا اليه الرقص والتواجد والسماع .

كراماتـــه : قد تصدر الخوارق والكرامات من عباد الله

(١) قواعد الاحكام : ١٨٦/٢

(٢) : : :

الصـــالحين الاتقياء بارادة من الله ، الامر الذي اتفق عليه جمهور الامة . ولكن المتساهلين من أهل التصوف ومريدوا أهل الطرق بالغوا في الموضوع وأسرفوا في العناية بها، وجعلوا في كثير من الاحيان الحبة قبة .

فالمعتدلون الثقات من المترجمين كابن كثير والذهبي ، وابن رافع السلامي وغيرهم لم يذكروا كرامات الشيـخ عز الدين . وذكر السبكي حادثتين أو ثلاثا من هـــذا القبيل ولكنه لم يكثر ولم يلح إكثار مترجمي الصوفية والحاحهم من أمثال النبهـــاني واليافعي والكوهن الفاسي . وقد يكون للشيخ العز بعض الخوارق الطفيفة ، وهو هو في ورعه ، وتنسكه ، وصدقه وإخلاصـــه لله ، وقوة إيمانه .

قال السيوطي : « وله كرامات كثيرة »[1].

وقال ابن اياس المصري : « وكانت له كرامات خارقة»[2].

ولم يصرح السبكي بمثل هذا القول ، ولكنه ساق بعض الحوادث بصيغة تدل على تنصيصه على كرامات عز الدين .

منها رواية يحكيها السبكي عن والده، وهو عن الشيخ أبي زكريا صدر الدين . وخلاصتها ان الشيخ عبد الله البلتاجي — أحد أصدقاء

---

(١) حسن المحاضرة : ١٧٣/٢

(٢) تاريخ مصر : ١١٢/١

عز الدين – من أهل الله الصـــالحين ارسل اليه هدية وفيها « جبن » ووقع وعاء الجبن وانكسر ، فتلوث ، واشترى الرجل جبناً آخر من بائع ذمي . ولما أتى بالهدية وفيها هذا الجبن ، قبل الشيخ الاشياء الأخرى، ورد الجبن قائلاً : «يا ولدي! ايش نعمل بهذا : ان المرأة التي حلبت لبن هذا الجبن ، كانت يدها متنجسة بالخنزير » . وكان الرجل ظن انه لا يتبين الشيـخ من أين هذا الجبن ، لانه لم يره أحد وهو يشتريه من الذمي[1] .

ومنها ما يحكى في واقعة الفرنج في دمياط التي كاد المسلمون ان ينهزموا فيها لشدة الريح والطوفان في النيل . فنادى الشيـخ بأعلى صوته مشيراً بيده الى الريح : « يا ريح ا خذهم» عدة مرات ، فعادت الريح على مراكب الفرنج ، وكان الفتح . وصرخ صارخ : « الحمد لله الذي أرانا من أمة محمد صلى الله عليه وسـلم رجلاً سخّر له الريح »[2] .

والثالثة في حادثة « بيع امراء الدولة من الاتراك » المعروفة ، التي خرج فيهـــا الشيـخ من داخل بيته ليقابل على الباب الوزير الغـــاضب ، والسيف بيده مصلت لقتله ، فحين وقع بصر

---

(١) انظر طبقات السبكي : ٥/٨٢

(٢) نفس المصدر : ٨٤ وأبرزها السبكي في عنوان خاص.

عز الدين عليه يبست يد الوزير وسقط السيف من يده ، وأرعدت مفاصله [١] .

هذا ما أورده السبكي ، وعليه قال ما قاله السيوطي والمؤرخ ابن اياس المصري ، واما مترجمو الصوفية كالنبهاني واليافعي وغيرهما فطاروا به كل مطار ، وأشـادوا بذكر كراماته ، ونوهوا بها أعظم التنويه [٢] .

ويستطيع منكر الخوارق التأويل بان الحادثة الاولى من قبيل الحدس الصـادق من عز الدين ،أو نوع اكرام من الله له على صدق نيته ، وعزيمته في العبادات ، وورعه ، فكشف له عما خفي عنه وربما تأذى بعد استعمال ذلك الجبن النجس وتأسف لعدم احتياطه . وأما الثانية ، فالظاهر انه دعاء بقلب صادق خاشع في أزمة عامة على المسلمين ، فاستجاب الله دعاءه ، وصرف الريح الى الاعداء ، وبيده ملكوت السموات والارض ، وكم ابرّ يميناً أقسم عليه أشعث أغبر . وأما الحادثة الاخيرة فيبدو أن شخصية الشيخ القوية وهيبته ومهابته أثـّرت في الوزير الذي كان على باطل ،فافقدته صوابه ، ومثل هذا كثير .

---

(١) طبقات السبكي : ٥/٨٥

(٢) ومن اراد التوسع فليرجع الى جامع كرامات الاولياء للنبهاني ٢/٨١ ، ونشر المحاسن الغالية في فضائل الصوفية في ترجمة العز .

أثر التصوف في حياته : والشيخ العز بن عبد السلام من الطائفة الصوفية الذين أتقنوا علم الشريعة وعلم الطريقة ، ولم يفرقوا بينهما . بل رأوهما متلازمين كالامام الغزالي ، والشيخ عبد القادر الجيلاني وغيرهما . ومن كلامه في هذا :

« والطريق في إصلاح القلوب التي تصلح الأجساد بصلاحها وتفسد بفسادها : تطهيرها من كل ما يباعدها عن الله . وتزيينها بكل ما يقربها اليه ويزلفها لديه ، من الأحوال ، والأقوال ، والأعمال ، وحسن الآمال ، ولزوم الإقبال عليه ، والإصغاء اليه ، والمثول بين يديه في كل وقت من الأوقات ، وحال من الأحوال على حسب الإمكان ، من غير أداء الى السآمة ، والملال . ومعرفة ذلك هي الملقبة بعلم الحقيقة » .

ثم قال : « وليست « الحقيقة » خارجة عن « الشريعة » بل الشريعة طافحة باصلاح القلوب بالمعارف والأحوال ، والعزوم والنيات ، وغير ذلك مما ذكرناه من أعمال القلوب . فمعرفة أحكام الظواهر معرفة لجَلّ الشرع ، ومعرفة أحكام البواطن معرفة لدَق الشرع . ولا ينكر شيئاً منهما إلا كافر أو فاجر »[1] .

وهذا الامتزاج اللطيف بين علوم الحقيقة وعلوم الشريعة ميزة

---

(١) قواعد الاحكام : ١٧٩/٢

كبرى وسمة بارزة لحياة الشيخ عز الدين . فنجده مع صلابته في الدين ومحاربته للبدع ، وقيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رقيق العاطفة ، لين الكلام ، كبير التأثير . وما زهده وورعه إلا أثر عملي لعلم « الحقيقة » هذا الذي أتقنه ومارسه باخلاص. وكان لتصوفه أثر في أسلوب كتابته ، من حيث الرقة والتأثير في النفس ، وهو يكتب في موضوعات فقهية ، ويشهد على ذلك كتابه « قواعد الأحكام» في بدايته وعند النهاية .

وقد أشاد بذكره السبكي قائلًا: « وقد كانت للشيخ عز الدين اليد الطولى في التصوف وتصانيفه فاضية بذلك »[١].

وألف عز الدين في التصوف بعض رسائل مر ذكرها .

وعلى كل حال ظل فقهه غالباً على تصوفه فهو فقيه ، متصوف ، متشرع . ومن المعاصرين الذين رفعوا ذكره في صف أهل التصوف صاحب كتاب « عصر سلاطين المماليك وانتاجه العلمي والادبي» الذي أفاض في عرض نماذج من كلام الشيخ في مواضيع صوفية بحتة ، ومن أراد التوسع فليرجع اليه .

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى : ٨٢/٥

الفصل الثالث

أثره في عصره

رأينا فيما سبق العزّ بن عبد السلام في حياته العلمية والعملية .
رأيناه في حلقات التدريس ، ومنابر الخطابة ، وقاعات المحاكم ، وهو يلقي الدروس على تلاميذه ، ويخطب الجمهور أيام الجمع ، ويقضي بين الناس ويحكم ، وكذلك رأيناه وهو يفتي ويؤلف ، ثم رأينا العزّ الصوفي وهو يغشى حلقات الصوفية ويصاحبهم .

وهو بنشاطه هذا وذاك يترك آثاراً في النفوس قوية هنا وهناك رأينا بعضها .

والآن في هذا الفصل نحاول أن نلقي على الشيخ نظرة وهو يلامس محيطه ويعايش عصره بصورة عامة ، ثم نتلمس ما ترك فيه من أثر .

ونقسم ذلك في قسمين . أولاً ، ما يتعلق بالحياة الدينية العادية للناس . وثانياً ، المواقف التي وقفها من حوادث لعصره معروفة

هامة . وصنفنا تلك الحوادث حسب الترتيب الزمني ليسهل التتبع – ولو أنها حوادث منفصلة بعضها عن بعض تماماً – ويمكن ملاحظة الانسجام في مواقف العز منها .

والحافز الأخير لتخصيص تلك المواقف بفصل خاص ، هو ان الشيخ اشتهر وعُرف لدى جمهور المثقفين ببعض مواقفه تلك حتى كانت مدعاة الى ان يختارها بعض كبار أدباء العصر للمواضيع الادبية التوجيهية . فأردنا أن نعالجها بشيء من التفصيل والدقة ، ولا يتأتى ذلك في الحديث المتسلسل عن حياة الرجل ، إذ يطول العرض والنقاش ، فينقطع حبل الكلام ويمل القارىء ، وتفقد الحوادث قيمتها وأهميتها في نظره .

وأخيراً يتحقق بعرض تلك الحوادث في عنوان خاص ، متقطعة عن مجراها الطبيعي الزمني ، ما قصدناه من ملاحظة تأثير الرجل في عصره ، ولم يكن يحصل ذلك لو سردناها في السير العادي لحياة الشيخ ، إذ تقل قيمتها وتتلاشى روعتها في غمار وجهات الحياة المتعددة ونشاطاتها المتنوعة .

أعماله العامة :

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : اشتهر الشيخ بقيامه بهذا الواجب الديني الاجتماعي ، وكثيراً مانوه به مترجموه القدامى:

قال الذهبي : « وقدم مصر فأقام بها أكثر من عشرين عاماً ، ناشراً للعلم ، آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر ... »[١] الخ .

وقال السبكي ، مفتتحاً ترجمته : « ... القائم بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه »[٢] .

وقال الكتبي : « وكان أمّاراً بالمعروف ، نهاءاً عن المنكر ، لا يخاف في الله لومة لائم »[٣] .

وقال ابن العماد الحنبلي : « ... وهذا مع الزهد والورع، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر »[٤] .

وهذا الامر من الاشتهـــار والاستفاضة بحيث لا يحتاج الى نصوص وأقوال ولكن سقنا بعضها ليكون كلامنا مسنداً ، وفيها كفاية .

---

(١) بنقل سركيس عنه في معجمه : ١٦٤

(٢) طبقات الشافعية : ٥/٨٠

(٣) فوات الوفيات : ١/٥٩٥

(٤) شذرات الذهب : ٥/٣٠٢

ومن مواقفه في هذا الباب ماروواه النعيمي : «أنكر الشيخ عز الدين على الفقـير علي الحريري ، منشيء الحريرية ، لتركه أوامر الشرع»[١] وكان هـذا الرجل تخلى عن الفرائض الدينية كالصوم والصلاة وجمع حوله جماعة من الناس منحرفين ، وكون منهم طائفة « الحريرية » .

ومنها إنكاره على السلطان الاشرف في تساهله مع وزرائه وحكامه الذين يرتكبون الآثام ، ويجورون على الرعية بفرض ضرائب متنوعة ، وإباحته لبيع الخمور في بعض المحلات ، وكذا أنكر مثل هذا الانكار على الصالح نجم الدين سلطان مصر .

ولم يكن يقتصر بمطالبة أولي الامر بابطال المنكرات ، بل ربما باشره بنفسه اذا سمع لتوجيه ملك أو سلطان ، كما حدث في عصر السلطان الاشرف ، قال السبكي بهذه المناسبة « وباشر بنفسه بتبطيل بعضها » . ولم يكن ينتظر أوامر السلطان أو موافقته اذا كان بيده سلطة ، فهدم بنفسه وبمساعدة أولاده المقصف الذي بناه وزير الدولة المصرية على سطح أحد المساجد بمصر وهو القاضي بها .

وبامكاننا أن نلاحظ من خلال تلك الحوادث الصغيرة وأمثالها الأثر الذي يتركه عز الدين في عصره . فالسلطان ينتبه للفاسد من

---

(٣) الدارس من تاريخ المدارس ، الجزء الثاني في ترجمة العز بن عبد السلام.

الامور ، ويتحرك لإقامة الخير ، ويشعر بمسؤولياته في الحكم ، وحاشيته ونوابه يزجرون ويرتدعون ، فيقلعون عما تعودوا الولوغ فيه من أكل الرشاوي ، وفرض الضرائب الجائرة الى غير ذلك .
ويحس علماء الشرع بمسؤوليتهم في التوجيه الديني للناس، ويتيقظ الجمهور وينتشر فيه الوعي الديني والانتباه الى حقوقه .

إزالته للبدع : وكان الى جانب ذلك جاداً مجداً في إزالة البدع ومحاربة المحدثات في أمور الدين ، وهي من المنكرات والضلالات. وأشار الى ذلك بعض مترجميه :

قال اليافعي : « ... وقمعه للضلالات والبدع... »[1] الخ

وحين تتاح له فرصة لاتخاذ خطوة عملية إيجابية في إبطالها ، يبادر الى التنفيذ وهو نفسه القائل: « فطوبي لمن تولى شيئاً من أمور المسلمين فأعان على إماتة البدع واحياء السنن »[2] .

ومن ذلك إبطاله صلاتي الرغائب ونصف شعبان ومنعه إقامتها بالجامع الاموي كما مرّ . لانه لم ترد سنة صحيحة من الرسول ﷺ فيهما ، فهما من البدع المستحدثة في العبادات .

وكان في ذلك من الشدة والصلابة ــ وهي طبيعته ــ بحيث لا يبالي

---

(١) مرآة الجنان : ١٥٣/٤

(٢) طبقات الشافعية الكبرى : ١٠٧/٥

بمخالفة مخالف ولا حرب منازع، وإذا لزم الامر فهو مستعدّ للمحاجة والمناظرة . ولم يمرّ منعه من هاتين الصلاتين بسلام ، بل كان فيه خصام ونزاع ، وأخذ ورد .

روى اليافعي : « وقع بينه وبين شيخ دار الحديث الامام أبي عمرو بن الصلاح في ذلك منازعات ومحاربات شديدات . وصنف كل واحد منهما في الرد على الآخر ، واستصوب المتشرعون المحققون مذهب الامام ابن عبد السلام في ذلك . وشهدوا له بالبروز بالحق والصواب في تلك الحروب والضراب »[١] .

ونقل السبكي رسالة العز الى ابن الصلاح في هذا الموضوع باكملها، وهي قوية في الحجة ، شافية للاقناع . ويروى ان ابن الصلاح رجع عن موقفه ، ووافق عز الدين في المنع .

وكان الشيـخ في ذلك دقيق الملاحظـة ، لاتفوته الصغائر من البدع . كان خطباء الجمع في جامع دمشق جروا على اتيان أشياء لا سند لها من السنة الصحيحة الثابتة ، كلبس الجبة السوداء عند إلقاء الخطبة ، ودق السيف على المنبر ، وسجع الخطبة، والثناء على الملوك وغير ذلك . فلما عهد بخطابة الجامع الى عز الدين امتنع عن كل ذلك في أول فرصة .

---

(١) مرآة الجنان : ١٥٥/٤ ، وانظر شذرات الذهب : ٣٠٢/٥

قال ابن العماد الحنبلي : « وقد ولي الخطابة بدمشق ، فأزال كثيراً من بدع الخطباء ، ولم يلبس سواداً ، ولا سجع خطبته ، كان يقولها مترسلًا . واجتنب الثناء على الملوك بل كان يدعو لهم »[1] .

وضرب عز الدين بذلك مثلًا للعالم الديني الصادق ، يتحرى الحق والصواب في أمور الدين ، ثم ينفذها دون أن يجاري الجمهور ، او يداري الطوائف والجماعات المنحرفة المبتدعة ، أو يخضع للعادة والمألوف .

المواقف الحاسمة في حياته :

(في دمشق)

فتنة الحنابلة :

حدثت هذه الفتنة في عصر السلطان الاشرف بن الملك العادل الايوبي في دمشق . وهي أول حادثة في حياة عز الدين هزته ، ووقف منها موقف الرجل الجريء الصلب الصابر ، فكان هو البطل والمنتصر في النهاية .

أشار الى هذه الفتنة الذهبي قائلًا : « كان للأشرف ميل الى

---

(١) شذور الذهب : ٣٠٢/٥ ، وانظر طبقات السبكي: ٨٠/٥

المحدثين والحنابلة ، وفي عصره حصلت فتنة بين الحنابلة والشافعية بسبب العقائد . وتعصب الشيخ عز الدين ابن عبد السلام على الحنابلة ، وجرت خبطة . كتب عز الدين الى الاشرف...»[١] .

ونجد إشارة أخرى عند الكتبي الذي اقتضب الحادثة كلها بقوله : « ولما كان بدمشق سمع من الحنابلة أذى كثيراً رحمه الله »[٢] .

والسبكي هو الوحيد الذي نقل لنا أخبار هذه الفتنة بتفصيل واسهاب عن ولد الشيخ عز الدين . ولكنه أيضاً لم يحدد لنا تاريخ وقوعها . وكل ما نستطيع القول به انها حصلت قبل سنة ٦٣٥ هـ إذ فيها توفي الاشرف . ولعلها وقعت في نهاية السنة نفسها قبيل وفاة الاشرف . ويشعرنا بذلك طريقة الراوي (شرف الدين ابن العز) في سردها . ونحن نقدمها هنا ملخصاً من طبقات السبكي .

سببها : عرفنا من كلام الذهبي أن الاشرف كان يميل الى الحنابلة والمحدثين الذين أنشأ لهم دار حديث حسنة. وتفصيل ذلك ان « طائفة من مبتدعة الحنابلة ، القائلين بالحرف والصوت صحبوم السلطان في صغره . وهؤلاء قرروا في ذهنه ان الذين هم عليه

(١) سير النبلاء : ٢/٢٩٤ ، وبعده بقع مبهمة في المخطوط .
(٢) فوات الوفيات : ١/٥٩٦ .

اعتقاد السلف ، وانه اعتقاد أحمد بن حنبل رحمه الله وفضلاء أصحابه. واختلط هذا بلحم السلطان ودمه . وصار يعتقد أن مخالف ذلك كافر حلال الدم » .

ولما عرف الاشرف عن الشيخ عز الدين مكانته العلمية وصلابته الدينية ، وقيامه بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر صار يلهج بذكره ويؤثر الاجتماع به ، والشيخ لايجيب الى الاجتماع .

فعندما علم اولئك الحنابلة المتعصبون هذا الميل من السلطان الى عز الدين وشوا به اليه وقالوا : « انه اشعري العقيدة ، يخطّىء من يعتقد الحرف والصوت ويبدّعه . ومن جملة اعتقاده انه يقول : يقول الاشعري : الخبز لايشبع ، والماء لا يروي ، والنار لاتحرق». فاستمال ذلك السلطان واستعظمه ، ونسبهم الى التعصب عليه . فكتبوا فتيا في مسئلة الكلام وأوصلوها اليه ، وهدفهم ان يكتب عليها العزّ بعقيدته الأشعرية فتسقط مكانته عند السلطان . وكان الشيخ قد وصل الى سمعه هذا الخبر ، فلما جاءته الفتيا قال : « هذه الفتيا كتبت امتحاناً لي والله لا كتبت فيها إلا ما هو الحق » .

فكتب رسالته الصريحة القوية — التي عرفت « بعقيدة عز الدين أو ملحة الاعتقاد » — في سبع صفحات[1] ، معلناً فيها عقيدة جمهور

(١) وهي منشورة بأكملها في طبقات السبكي : ٥/٨٥-٩٢

أهل السنة ، منتصراً لها ، داحضاً أقوال المخالفين وحججهم في أسلوب منطقي عاطفي .

وفرح خصومه بفتياه هذه ، جازمين انهم سينتصرون بها عليه، ويستنزلون عليه غضب السلطان ونقمته ، وهكذا كان. إذ لما اطلع السلطان عليها استشاط غضباً وقال : « صح عندي ماقالوه عنه. وهذا رجل كنا نعتقد انه متوحد في زمانه في العلم والدين ، فظهر بعد الاختبار انه من الفجار ، لا بل من الكفار ».

وهكذا نجح الحنابلة باثارة الأشرف عليـــه ، وبذروا بذور الفتنة ضده . وأما موقف جمهور علماء دمشق من غضب الأشرف عليه فـكان سلبياً أو مجاملة إلا الاثنين من غير الشافعية . ويصور انا ولد الشيـخ هذا الخذلان من جانب ، والحمية والدفاع عنه من جانب آخر في ألفاظه التالية :

« وكان ذلك في رمضـــان عند الافطار ، وعنده على سماطه عامة الفقهاء من جميع الاقطار ، فلم يستطع أحد منهم أن يرد عليه . بل قال بعض أعيانهم : السلطان أولى بالصفح والعفو ، ولا سيما في مثل هذا الشهر . وموّه آخرون بكلام موجّه ، يوهم صحة مذهب الخصم ، ويظهرون انهم قد أفتوا بموافقته .

فلما انفضوا تلك الليلة من مجلسه بالقلعة ، اشتغل الناس في البلد بما جرى في تلك الليلة عند السلطان . وأقام الحق سبحانه وتعالى

الشيخ العلامة جمال أبا عمرو بن الحاجب المالكي في هـذه القضية .
ومضى الى القضاة والعلماء الأعيان الذين حضروا هذه القضية عند السلطان ، وشدد عليهم النكير وقال : العجيب ! انكم كلكم على الحق وغيركم على الباطل ، وما فيكم من نطق بالحق. وسكتم ، وما انتصرتم لله تعالى وللشريعة المطهرة . ولمّا تكلم متكلم منكم قال : « السلطان أولى بالعفو والصفح ، ولا سيما في مثل هـذا الشهر » وهذا غلط بوهم الذنب . فان العفو والصفح لا يكونان إلا عن جرم وذنب . اما كنتم سلكتم طريق التلطف باعلام السلطان بان ما قاله ابن عبد السلام مذهبكم ومذهب أهل الحق، وان جمهور السلف والخلف على ذالك ولم يخالفهم فيه إلا طائفة مخذولة ، يُخفون مذهبهم ويدسّونه على تخوف الى من يستضعفون علمه وعقله. وقد قال الله تعالى : (وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحَقَّ وأنْتُمْ تَعْلَمُونَ) .

ولم يزل يعنفهم ويوبخهم الى ان اصطلح معهم على ان يكتب بصورة الحال ، ويكتبوا بموافقة ابن عبد السلام ، فوافقوه على ذلك وأخذ خطوطهم بموافقته » .

ثم طلب عز الدين من السلطان بعد ذلك ان يعقد مناظرة بين الشافعية والحنابلة ويحضرها غيرهما من علماء المسلمين ، وكتب اليه يقول :

« ان العلماء الذين حضروا مجلس السلطـــان وافقوا كتابياً على فتياه ، وانهم لم يمكنهم ذلك بحضرة السلطان في ذلك الوقت لغضبه ، وما ظهر من حدته في ذلك المجلس . والذي نعتقد في السلطـان انه اذا ظهر له الحق رجع اليه . وانه يعاقب من موّه بالباطل عليه ، وهو اولى الناس بموافقة والده السلطان الملك العادل ، فانه عزّر جماعة من أعيان الحنابلة المبتدعة تعزيراً بليغاً رادعاً . وبدّع بهم وأهانهم » .

وكانت رسالته هذه ، ومطالبته الأشرف بعقد المناظرة شرارة أخرى ، ألهبت السلطان وأخرجته عن طوره . فرد في الحال على الشيـخ وكتب بخط يده :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصل اليّ ما التمسه الفقيـه ابن عبد السلام – أصلحه الله – من عقد مجلس وجمع المفتين والفقهاء . وقد وقفنا على خطه وما أفتى به . وعلمنا من عقيدته ما أغنى عن الاجتماع به . ونحن نتبع ما عليه الخلفاء الراشـــدون الذين قال صلى الله عليه وسلم في حقهم : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي » . وعقائد الأئمة الأربعة فيها كفاية لكل مسلم يغلب هواه ، ويتبع الحق ، ويتخلص من البدع ؛ اللهم إن كنت تدعي الاجتهاد ، فعليك أن تثبت ليكون الجواب على قدر الدعوى ، لتكون صاحب مذهب خامس . وأما ماذكرته عن الذي جرى

في أيام والدي تغمده الله برحمته فذلك الحال أنا أعلم به منك، وما كان له سبب إلا فتح باب السلامة لامر ديني .

وجرمٍ جرّه سفهاء قوم   فحلّ بغير جانيه العذاب

ومع هذا فقد ورد في الحديث : « الفتنة نائمة لعن الله مثيرها » ومن تعرض لإثارتها قاتلناه بما يخلصنا من الله تعـالى ، وما يعضد كتاب الله وسنة رسوله ﷺ » .

ولما وردت هذه الرسالة الملكية الى عز الدين قرأها وطواها ، ولم يرد أن يثير ضجـة أو يتصرف بغير حكمة . وقال للرسول : « قد وصلت ، وقرأتها وفهمت ما فيها ، فاذهب بسلام » ولكن كان السلطان قد أراد التحدي، إذ قال الرسول : قد تقدمت الاوامر السلطانية باحضار جوابها .

وهناك تقدمت الفتنة خطوة أخرى الى الامام . فلم يكن العزّ ليرهب ويخاف . ويخضع لتحدي الملوك ، فينكسر لهم ويلين . فما كان منه إلا أن قبل هذا التحدي ، وارتجل رسـالة أقوى وأشد صراحة رداً عليه . بدأهـا بصوت الحق الهادر : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وختمها بهتاف المؤمن المجاهد الصابر « وبعد ذلك نزعم أنّا من جملة حزب الله وأنصار دينه وجنده ، وكل جندي لا يخاطر بنفسه فليس

بجندي[١] » . وتخلل ذلك الجهرُ بعقيدته وما عليه جمهور أهل السنة ، محتجاً بالأدلة والبراهين .

ويصور لنا ابنه هذا المشهد مرة أخرى ، قائلاً : «وكان يكتبها وهو مسترسل من غير توقف ولا تردد . فلما انتهى كتابتها طواها وختمها ودفعها الى الرسول . وكان عنده حال كتابتها رجل من العلماء والفضلاء ، ممن يحضر مجلس السلطان ، فوقفه على الرقعة التي وردت من السلطـــان فتغير لونه ، واعتقد أن الشيخ يعجز عن الجواب لما شاهد في ورقة السلطان من شديد الخطاب . فلما خط الشيخ مسترسلاً عجلاً ، وهو يشاهد ما يكتبه بطل عنه ما كان يحسبه ، وقال له ذلك العالم : لو كانت هذه الرسالة التي وصلت اليك وصلت الى قس بن ساعدة لعجز عن الجواب وعدمِ الصواب ، ولكن هذا تأييد إلهي » .

كان الموقف دقيقاً خطراً ، فزع منه الناظر المشاهد ، وخشي سوء العاقبة ، ولكن العزّ لم يخش ولم يفزع ، وأبى إلا أن يعلن ما يراه الحق صريحاً قوياً ، غير مبال بما يخفيه له مواجهته وصموده لتحدي سلطان عنيد ناقم ، من مؤكد المحنة والبلاء .

---

(١) راجع الرسالة بامرها في طبقات السبكي : ٥/٩٣–٩٥

الاضطهـــاد : وكانت المحنة والبلاء ، فعندما قرئت الرسالة على السلطان ، اشتدت استشاطته وعظم غضبه ، وتيقن العدو تلف الشيخ وهلاكه . ووجه الاشرف وزيره الغرز خليلا حاملا اياه حكم الاضطهاد وكان :

١ – أن لا يفتي أحداً .

٢ – أن لا يجتمع بأحد .

٣ – أن يلزم بيته .

وأبلغه الوزير هذا الحكم بالإقامة الجبرية أو شبه الحبس بغاية تأدب وحسن ابلاغ ، متأسفاً على تجنب الشيخ الاجتماع بالسلطان، لانه كان يحب الشيخ ويعتقد فيه .

ولم يكن هذا الحكم القاسي مفاجأة له ، وكأنه كان ينتظره ، بل رآه بشرى له واستقبله ببشر وترحاب .

قال : « يا غرز ! إن هذه الشروط من نعم الله الجزيلة عليّ ، الموجبة للشكر لله تعالى على الدوام . أما الفتيا فإني كنت والله ! متبرماً بها وأكرهها ، وأعتقد أن المفتي على شفير جهنم ، ولولا اعتقادي أن الله أوجبها عليّ في هذا الزمان لما كنت تلوثت بها ، والآن فقد عذرني الحق ، وسقط عني الوجوب ، وتخلصت ذمتي ، ولله الحمد والمنة . وأما ترك اجتماعي بالناس ولزومي البيت ، فما

أنا في بيتي الآن . وإنما أنا في بستان ، ومن سعادتي لزوم بيتي ، وتفرغي لعبادة ربي . والسعيد من لزم بيته ، وبكى على خطيئته واشتغل بطاعة الله تعالى . وهـــذا تسليك من الحق ، وهدية من الله تعالى اليّ ، أجراها على يد السلطان وهو غضبان وأنا بها فرحان. والله ! يا غرز ! لو كانت عندي خلعة تصلح لك على هـــذه الرسالة المتضمنة لهذه البشارة لخلعت عليك ، ونحن على الفتوح ، خذ هذه السجادة ، وصلّ عليها ، فقبلها وقبّلها » .

وهكذا ينتهي هذا المشهد ، ويرجع الوزير الى السلطـان ويخبره بما جرى بينه وبين الشيـخ . فيسقط في يده ، ويعجز . ويقول لأهل مجلســـه : « قولوا لي ما أفعل به . هذا رجل يرى العقوبة نعمة » .

وبقي الشيـخ عز الدين في هذه الاقامة الجبرية، في بستانه البعيد عن العمران برهة من الزمان الى ان قيّض الله رجلاً ليدافع عنه عند السلطان وينتصر له .

دفاع عالم وسلطان عنه : يقول ولده: « ثم ان الشيخ جمال الدين الحصيري ، شيخ الحنفية في زمانه – وكان قد جمع بين العلم والعمل – ركب حماراً له ، وحوله أصحابه ، وقصد السلطان. فلما بلغ الملك الاشرف دخول الحصيري الى القلعة أرسل اليه خاصته يتلقونه ، وأمرهم أن يدخلوه الى دار الإمارة راكبـاً على حماره . فلما رآه

السلطان ، وثب قائماً ومشى اليه ، وأنزله من حماره ، وأجلسه على تكرمته ، واستبشر بوفوده عليه ، وكان في رمضان، قرب غروب الشمس . فلما دخل وقت الغروب ، وأذن المؤذن صلوا صـــلاة المغرب ، وأحضر للسلطان قدح شراب ، فتناوله وناوله للشيـخ ، فقال له الشيخ « ما جئت الى طعامك وشرابك » فقال له السلطان : « يرسم الشيـخ ونحن نمتثل مرسومه » فقال له : « ايش بينك وبين ابن عبد السلام ، وهـــذا رجل لو كان في الهند أو في أقصى الدنيا كان ينبغي للسلطان ان يسعى في حلوله في بلاده ، لتتم بركته عليه وعلى بلاده ، ويفخر به على سائر الملوك » قال السلطان : « عندي خطه باعتقاده ، في الفتيا ، وخطه أيضـــاً في رقعة في جواب رقعة سيرتها اليه ، فيقف الشيـخ عليهما ، ويكون الحكَم بيني وبينه » . ثم أحضر السلطان الورقتين وقرأهما الى آخرهما . فقـال الشيـخ الحصيري : « هذا اعتقاد المسلمين وشعار الصالحين ويقين المؤمنين وكل ما فيهما صحيـح ، ومن خالف ما فيهما ، وذهب الى ماقاله الخصم من اثبات الحرف والصوت فهو حمار » فقال السلطان : « ونحن نستغفر الله مما جرى ونستدرك الفـــارط في حقه . والله ! لأجعلنّه اغنى العلماء » وأرسل الى الشيـخ واسترضـاه وطلب محالته ومخالته » .

ويحدثنا الراوي : « ان الحنابلة كانوا انتصروا على أهل السنـة

وعلت كلمتهم ، بحيث انهم صاروا اذا خلوا بالاشعرية في المواضع الخالية ، يسبونهم ويضربونهم ويذمونهم ، فعندما اجتمع الشيخ الحصيري بالسلطان ، وتحقق هو ما عليه الجم الغفير من اعتقاد أهل الحق ، تقدم الى الفريقين بالامساك عن الكلام في مسئلة «الكلام» ، وان لا يفتي فيها أحد بشيء ، سداً لباب الخصام . فانكسرت المبتدعة بعض الانكسار ، وفي النفوس ما فيها ».

وهكذا انتهت المحنة بانتصار العزّ بن عبد السلام ، ولكن لم تعد المياه الى مجاريها ، إذ منعه السلطان من الكلام في العقائد الكلامية . وهنا برز سلطان مصر ليكمل للشيخ ما بقي من انتصاره في تلك الفتنة .

كان الملك الكامل (أخو الأشرف) سلطان مصر أشعريّ العقيدة ومتعصباً فيها . وكان قد سمع بعض أخبار الفتنة وهو في مصر ، فطلب الاجتماع بالشيخ ، فاعتذر اليه ، فطلب منه أن يكتب له ماجرى في هذه القضية مستقصى مستوفى . فكتب ولد الشيخ ، بأمر من والده ، الحادثة بتفاصيلها اليه ، واطلع السلطان عليها وانتظر الفرصة .

واتفق ان جاء الكامل الى دمشق بعد قليل واجتمع بأخيه الاشرف ، وجرى الحديث عن القضية . قال الكامل : «ياخوند[1] !

(١) كلمة تركية بمعنى الأخ .

كنت قد سمعت انه قد جرى بين الشافعية والحنابلة خصام في مسئلة الكلام . وان القضية اتصلت بالسلطان . فماذا صنعت فيها؟ »

فقال الأشرف : « ياخوند ! منعت الطائفتين من الكلام في مسئلة الكلام ، وانقطع بذلك الخصام » . فقال الكامل : « والله ! مليح ، ماهذه السياسة والسلطنة ؟ ! تساوي بين الحق والباطل ، وتمنع أهل الحق من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن يكتموا ما أنزل الله عليهم ! . كان الطريق ان تمكّن اهل السنة من ان يلحنوا بحججهم ، وان يظهروا دين الله ، وأن تشنق من هؤلاء المبتدعة عشرين نفساً يرتدع بهم غيرهم ، وأن تمكن الموحدين من إرشاد المسلمين ، وأن يبينوا لهم طريق المؤمنين ».

وهنا تمّ انتصار العز ، وانخذل الفريق الآخر وسكت صوتهم . وارتد السلطان من كراهة الشيخ وغضبه عليه الى حبه له ، واكرامه إياه . وصرّح بخجله وحيائه من الشيخ ، وقال : « لقد غلطنا في حق ابن عبد السلام غلطة عظيمة » وصار يترضاه ويعمل بفتاويه ، وما أفتاه . وقرئت عليه « مقاصد الصلاة » ــ رسالة للعزّ ــ في يوم ثلاث مرات . وكلما دخل عليه أحد من خواصه يقول للقاريء : « اقرأ مقاصد الصلاة لابن عبد السلام حتى يسمعها فلان ينفعه الله بسماعها » .

وقد بلغ من عناية السلطان بهذه الرسالة ، إرضاءً للعزّ وتلافياً

لما فرط في حقه ، انه لما زاره واعظ الزمان الشهير والمؤرخ الكبير ابو المظفر سبط ابن الجوزي أعطاه إياها قائلاً : « طرّز مجلسك الآتي بها » .

وهكذا انتهت الفتنة بعد اضطهاد وتنكيل ،الى استرضاء وتقدير وتعظيم . ولكن الشيخ العز لم يستغل عاطفة السلطان هـذه في مصالحه ، وبقي كما كان بعيداً عن بلاطه الى ان مرض السلطان . فعاده على طلب منه ، في مرضه ، ووجهه توجيهـات مخلصة وقدم نصائح وارشادات . وكان لهذا تأثير حسن في نفس السلطان، إذ سمع للشيـخ ، وأصدر أوامره بابطال بعض المنكرات التي أشار اليها الشيـخ في الحال .

ومن السهل أن نبين الأثر الذي تركه موقف عز الدين من هذه الفتنة ، الصلب الصريح الصادق، سواء في نفوس العلماء من معاصريه الذين خافوا غضب السلطان ، فجبنوا من اعلان ما كانوا يعتقدونه أمامه ، وداهنوه ، وخذلوا العز في أول وهلة ؛ فاذا بهم يرون بأم أعينهم انتصار الحق ، وهكذا يأخذون درسـاً في الصدق والإخلاص والجرأة . وسواء في نفوس السلاطين ، فالأشرف هذا تغير من كراهية وعداوة للعز الى حب واصغاء اليه ، وكذلك الملك الكامل الذي تأثر به ، فدافع عنه ، وهكذا من جاء بعدهما، الصالح اسماعيل في دمشق والصالح نجم الدين في مصر اللذان اكرما الشيـخ بجليل المناصب والوقوف عند توجيهاته ، في بعض الاحيان .

خيانة سلطان دمشق السياسية :

هي أشهر حادثة في حياة الشيخ عز الدين بعد التي مرّت ، وهي التي أجبرته على أن يترك بلده دمشق نهائياً الى مصر . وحصلت في سنة ٦٣٨ هـ .

أصبح الملك الصالح اسماعيل بن العادل سلطان دمشق بعد وفاة الملك الاشرف (٦٣٥ هـ) ونشأ بينه وبين ابن أخيه الصالح نجم الدين بن ايوب نوع خلاف وعداوة ، لان اسماعيل حارب والد نجم الدين ، ثم وثب بعد موته على حكم دمشق .

تحالف الصالح اسماعيل مع الفرنج : ويذكر المؤرخون ان اسماعيل خاف من نجم الدين على حكمه ، فتحالف مع الافرنج الصليبيين ليساعدوه على نجم الدين ، وسلّم اليهم لقاء ذلك قلعة صفد وبلادها ، وقلعة الشقيف وبلادها ، ومناصفة صيدا وطبرية واعمالها ، وجبل عاملة وسائر بلاد الساحل[١]

---

(١) هذا كما جاء في كتاب السلوك للمقريزي ، قسم ٢ جزء ٣٠٣/١ ، اما غيره من المؤرخين كسبط ابن الجوزي ، وأبي شامة وغيرهما فلم يذكروا إلا قلعة الشقيف ، والصفد ، وقد وردت اسماؤهما محرفين في البداية والنهاية : « سعيف اربعون » مرة والثقيف اخرى ، و « صفد » ج١٣/١٥٥، و٢٣٦ وورد « الشقيف » محرفاً في ملحق الفهرس لبروكلمن بالالمانية (Qal,at Suqaiq) ولم يذكر السبكي الا مدينة صيدا .

وكانت مواقع استراتيجية مهمة[١] .

وزيادة على ذلك : أذن الصالح اسماعيل للفرنج في دخول دمشق ، وشراء السلاح فأكثروا من ابتياع الأسلحة وآلات الحرب من اهل دمشق . فأنكر المسلمون ذلك ومشى أهل الدين منهم الى العلماء واستفتوهم . فأفتى الشيخ عز الدين بن عبد السلام بتحريم بيع السلاح للفرنج[٢] .

انتقاد العزّ له وتعرضه للاضطهاد : ولم يكتف عز الدين باصدار الفتوى بل انتقد الصالح اسماعيل من على منبر جامع دمشق في يوم الجمعة المشهود ، وذمه على فعلته الشنيعة هذه ، وقطع من الخطبة الدعاء له وصار يدعو في الخطبة بدعاء ، منه : « اللهم أبرم لهذه الامة ابرام رشد ، تعزّ فيه أولياؤك ، وتذل فيه أعداؤك ، ويعمل فيه بطاعتك ، وينهى فيه عن معصيتك » والناس يضجون بالدعاء[٣] .

---

(١) وجاء في وصف قلعة الشقيف عند يا قوت الحموي : وهي قلعة حصينة جداً في كهف من الجبل قرب بانياس ، معجم البلدان ٣/٣٠٩ ، اما الصفد وغيرها فمعروف .

(٢) انظر السلوك للمقريزي : ق٢ ج١ ص٣٠٣ و ٣٠٤ ، وطبقات السبكي : ٥/١٠٠

(٣) السلوك : ١/٣٠٤

وكان الملك الصالح اسماعيل غائباً عن دمشق . فأخبر عن ذلك ، فورد كتابه بعزل ابن عبد السلام عن الخطابة واعتقاله هو والشيخ ابن الحاجب المالكي ، لأنه رفع صوته في الانكار عليه مع عز الدين ، فاعتقلا .

« ثم لما قدم اسماعيل الى دمشق أفرج عنهما وألزم ابن عبد السلام بملازمة داره ، وأن لا يفتي ، ولا يجتمع باحد البتة ؛ فاستأذنه في صلاة الجمعة ، وأن يعبر اليه طبيب أو مزين (حلاق) اذا احتاج اليهما ، وأن يعبر الحمام ، فأذن له في ذلك[1] » .

مغادرته لدمشق : وهكذا ضاقت الحياة على عز الدين بهذه الإقامة الجبرية ، وسدت السبل أمامه ، فلا تدريس ، ولا إفتاء ، ولا قيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فعزم على أن يهاجر من دمشق الى بلاد يستطيع فيها القيام بواجبه العلمي والعملي بحرية وانطلاق ، فاختار لذلك مصر . وخرج اليها بعد ما أذن له في سنة ٦٣٨ هـ وكان معه زميله الشيخ ابن الحاجب المالكي . ووصل عز الدين الى القاهرة سنة ٦٣٩ هـ . ويظهر من هـذا أن الحادثة وقعت في أواخر سنة ٦٣٨ هـ . إذ لم يطل بقاؤه بعدها في دمشق . وقضى فترة قصيرة في بلاد القدس في طريقه الى مصر .

---

(٢) طبقات السبكي : ١٠١/٥

ملاحقة اسماعيل له بالقدس : واضطهده الصالح اسماعيل مرة أخرى وهو بالقدس . قال الشيخ عبد اللطيف ولد عز الدين :

« وأخرج الشيخ بعد محاورات ومراجعات ، فأقام مدة بدمشق ، ثم انتزح منها الى بيت المقدس . فوافاه الملك الناصر داود في الفور فقطع عليه الطريق ، وأخذه ، وأقام عنده بنابلس مدة ، وجرت له معه خطوب ، ثم انتقل الى بيت المقدس حيث أقام مدة .

ثم جاء الصالح اسماعيل والملك المنصور صاحب حمص ، وملوك الفرنج بعساكرهم وجيوشهم الى بيت المقدس ، يقصدون الديار المصرية . فسيّر الصالح اسماعيل بعض خواصه الى الشيخ بمنديله وقال له : تدفع منديلي الى الشيخ ، وتتلطف به غاية التلطف ، وتستنزله وتعده بالعودة الى مناصبه على احسن حال . فان وافقك فتدخل به عليّ ، وإن خالفك فاعتقله في خيمة الى جانب خيمتي » .

فلما اجتمع الرسول بالشيخ شرع في مسايسته وملاينته ، ثم قال له :

– بينك وبين أن تعود الى مناصبك ما كنت عليه وزيادة ،أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير .

فقال الشيخ : « والله ! يا مسكين ! ما أرضاه أن يقبل يدي فضلًا عن أن أقبل يده . يا قوم ! أنتم في واد وأنا في واد . والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به » . فقال : قد رسم لي أن توافق على ما يطلب منك ، وإلا اعتقلتك ، فقال الشيخ : افعلوا ما بدا لكم .

فأخذه واعتقله في خيمة الى جانب خيمة السلطان »[١].

ويذكر لنا راوي القصة هنا لفتة طريفة تدل على تقدير الأعداء لعز الدين . قال : « وكان الشيخ يقرأ القرآن ، والسلطان يسمعه ، فقال يوماً لملوك الفرنج ، تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن ؟ فقالوا : نعم . قال : هذا أكبر قسوس المسلمين ، قد حبسته لإنكاره عليّ تسليمي لكم حصون المسلمين ، وعزلته عن الخطابة بدمشق ، وعن مناصبه . ثم أخرجته ، فجاء الى القدس ، وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم . فقالت له ملوك الفرنج : لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقته »[٢].

خلاص العز من أمره ووصوله الى القاهرة : ولم ينج الشيخ

---

(١) طبقات السبكي : ١٠١/٥

(٢) » » »

من أسر اسماعيل إلا بعـــد ان جاءت الجيوش المصرية الى القدس وانهزم اسماعيل وحلفاؤه في الحرب ، وقتلوا وهربوا . وبعده واصل الشيـخ سيره الى مصر ، فوصل الى القاهرة في سنة ٦٣٩ هـ وبدأ هناك مرحلة جديدة من حياته .

(في مصر)

ولم يعش في مصر أيضـاً بسلام . وذلك لطبيعته التي لم تعرف الضعف والاستـكانة ، واصلابته في الدين . فحصلت له بها حوادث ووقف الشيـخ منها مواقف طارت بشهرته على مرّ الايام ، وفيما يلي بيان ذلك .

بيعه أمراء الدولة المماليك في المزاد :

أصلهم وحكم العزّ فيهم : كان هؤلاء المماليك الاتراك ذوي نفوذ وقوة في بلاط الدولة المصرية أيام الصـــالح نجم الدين ايوب . وتاريخ نفوذهم السياسي وقوتهم في الدولة الاسلامية يرجع الى أمد بعيد في التاريخ ، الى العصر العباسي الاخير ، إذ كانوا يديرون دفة الحكم من وراء عرش الخلافة .

وعلى كل حال وصل الشيـخ عز الدين الى القـــاهرة وعهد اليه سلطانها الصالح نجم الدين بمنصب رئاسة القضاء بها . وهؤلاء

المماليك الاتراك في أوج عزهم ، وسكرة رئاستهم ويلقبون بـ « الامراء ».

وبعدما تسلم الشيخ العز منصبه الهام ، نظر في الامور القضائية الشرعية نظرة إصلاح . فظهر له أن أولئك المماليك ما زالوا عبيداً أرقاء من الوجهة الشرعية القضائية ، ولم يثبت عنده أنهم نالوا الحرية حسب الإجراءات الشرعية . فحكم عليهم ، بأنهم من املاك بيت مال المسلمين ، واذا أرادوا الحرية فلا بد من بيعهم . وإذ هم ليسوا بأحرار ، فلا يجوز لهم من الناحية الشرعية أن يتصرفوا تصرف الاحرار في مجالات الحياة المختلفة ، حسب ما هو منضبط في الفقه .

فبدأ الشيخ -- وهو قاضي القضاة -- يُبطل أنواع العقود التي يعقدونها من بيع وشراء ونكاح وطلاق وما اليها ، فتعطلت مصالحهم بذلك ، واضطربت شؤونهم وضاقت بهم الحياة.

وكان من جملة هؤلاء نائب السلطنة فاشتد غضباً وثار وهاج . واجتمع القوم وأرسلوا الى الشيخ يستفسرونه ماذا ينوي بهم ، فأتى اليهم من الشيخ جواب صريح جريء : « نعقد لكم مجلساً ، وينادى عليكم لبيت مال المسلمين ، ويحصل عتقكم بطريق شرعي » .

تدخل السلطان في القضية : ولمّا رأوا الالحاح البالغ والعزم

الاكيد من عز الدين على بيعهم رفعوا الامر الى السلطان، متأكدين تدخله في صالحهم ، وانصياع الشيخ المرغبة السلطانية . فطلب السلطان منه ان يتركهم وشأنهم . فلم يرجع الشيـخ عن حكمه وصمد في موقفه ، وأصيب بذلك السلطان في كبريائه وعظمته . وجرت على لسانه كلمة ضد الشيـخ عنيفة ملؤها النقمة والسخط ، وحاصلها أن الشيـخ لا يجوز له أن يحـكم هـذا الحـكم القاسي على امراء دولته ونائب سلطنته ، وهو أمر لا علاقة له به ، وهو بذلك يتجاوز صلاحيته .

وغضب عز الدين لتدخل السلطان ، وترك القضـاء محتجاً ، وعزم على ترك البلاد . وحمل فعلاً أمتعته على حمار ، وأركب عائلته على حمير أخر ، وسـار مترجلاً خلفهم خارجاً من القاهرة يقصد الشام ، فلم يصل الى نحو نصف « بريد » إلا وقد لحقه غالب المسلمين لم تكن امرأة ولا صبي ولا رجل لا يؤبه اليه يتخلف لا سيما العلماء والصلحاء والتجار وأمثالهم .

واحتجاج الشيـخ هـذا العملي ، ووقوف وجهاء البلد وعامته في جانبه سبّب دوياً في المدينة . وبلغ ذلك السلطان ، وقيل له : « متى راح ذهب ملكك » . فركب السلطان بنفسه ، ولحقه واسترضاه ، وطيّب خاطره ، فرجع . واتفق معه على ان ينادي على الامراء في المزاد .

تعرضه لخطر الموت منهم : وحاول نائب السلطنة محاولة أخرى ، بأن يستدرك الامر ، ويبعد عن نفسه وجماعته مهانة العرض أمام الجمهور والمناداة عليهم بالبيع . فأرسل اليه بالملاطفة ، ولكن القاضي العدل الصارم لم يكن ليتأثر بالترغيب ولا بالتهديد ، فلم يرجع عن حكمه . وعند ذلك فقد هذا النائب صوابه من شدة الغيظ ، ووطأة الإهانة ، وصاح في كبرياء وخيلاء: « كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا . ونحن ملوك الارض ؟ ! والله ! لأضربنه بسيفي هذا » .

فركب بنفسه وأخذ معه جماعته ، وجاء الى بيت الشيخ والسيف مسلول في يده ، وطرق الباب ، فخرج ولد الشيخ ، ورأى من الوزير ما رأى ، فعاد الى أبيه يخبره وهو فزع خائف على والده ، فما اكترث الشيخ بذلك ولا تغير . وقال : « يا ولدي ! أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله » .

ثم خرج كأنه قضاء الله قد نزل على نائب السلطنة . وهنا ظهر أثر شخصية عز الدين القوية المهابة التي تفرض نفسها على الآخرين فرضاً . لان صاحبها قد ساوى بين الحياة والموت ، ولم يساو بين الحق والباطل ، فكسب بذلك قوة لاتعدلها قوة .

يروي السبكي : « وحين وقع بصره على النائب يبست يد النائب وسقط السيف منها وارعدت مفاصله . فبكى وسأل الشيخ

أن يدعو له ؟

وقال : يا سيدي . خبر ، أي شيء تعمله ؟

قال الشيخ : أنادي عليكم وأبيعكم .

قال النائب : فيم تصرف ثمننا ؟ قال : في مصالح المسلمين. قال النائب : من يقبضه ؟ قال : أنا .

فتم له ما أراد ، ونادى على الأمراء واحداً واحداً ، وغالى في ثمنهم ، وقبضه وصرفه في وجوه الخير » . ثم عقب عليه السبكي : « وهذا ما لم يسمع بمثله عن أحد »[١] . ونعتقد انه لم يسمع بمثله بعد زمن السبكي أيضاً .

أما الأثر الذي تركه موقف العز من هذه القضية ، الجريء المثالي في نفوس السلطان والأعيان والجمهور عامة فأظهر من أن يشار اليه . ومما لا يشك فيه انه أقام بذلك مناراً للحق والقضاء . وأمارة لكل من أراه أن يسلك سبيل الحق ، فاعترضته عقبات التهديد والترغيب ، ودرساً لكل ملك طاغية أو أمير معتد سوّلت له نفسه أن يقف في سبيل الحق ، وتوجيهاً لكل عالم قاض مسؤول ، تحمل مسؤولية القضاء ، وعزم على ان يسير في الطريق الحق ، ويقيم القسط .

---

(١) راجع طبقات الشافعية : ٨٤/٥

عقابه لوزير المملكة المصرية :

وهذا موقف آخر للشيخ ، حاسم جريء ، وقفه من وزير السلطان نجم الدين بمصر . وكان خصمه هذه المرة ، وزيراً مشهوراً وأميراً كبيراً هو معين الدين[١] بن شيخ الشيوخ الذي وزر لنجم الدين ، وفتح له دمشق وكان نائبه بها .

وقعت هذه الحادثة في سنة ٦٤٠ هـ في اواخرها ، ولم يمض على تسلم العز منصب القضاء إلا حوالي سنة أو أكثر . ونرويها هنا باختصار معتمدين على المقريزي أولاً ثم على السبكي .

بنى بعض غلمان الصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ ، وزير الملك الصالح نجم الدين بناءً بأمر مخدومه على سطح مسجد بمصر ، وجعل فيه « طبلخانه[٢] » عماد الدين بن شيخ الشيوخ . فأنكر قاضي القضاة عز الدين بن عبد السلام ، ومضى بنفسه واولاده حتى

---

(١) توفي بدمشق سنة ٦٤٣ هـ اخترنا هذا الاسم كما جاء عند الكتبي: ١/٥٩٥ والسلوك : ق ٢ ج١/٣١٢ خلافاً لما جاء عن السبكي في طبقاته الذي سماه فخر الدين عثمان ، فعثمان تصحيف كما أثبتناه في بحث المصادر ، وأما فخر الدين ، وهو أخو معين الدين ، فكان نائباً لوالد نجم الدين أي السلطان الكامل وكان ملازماً لداره بأمر من نجم الدين بعد اطلاق سراحه من الحبس . انظر السلوك ١/٣٠٩ ووافق المقريزي الكتبي .

(٢) كلمة فارسية تقارب معنى نادي الموسيقى .

هدم البناء ونقل ما على السطح . ثم شهد قاضي القضاة على نفسه ، انه قد أسقط شهادة الوزير معين الدين وانه قد عزل نفسه من القضاء[١] .

وإسقاط شهادة الوزير معناه حجب الثقة القضائية منه ، وهو شيء كبير بالنسبة لوزير مسؤول ، وسنرى أثر ذلك عما قريب .

وقبل السلطان استقالة الشيخ استجابة لرغبته ولكن « عظم ذلك عليه » كما جاء في عدة روايات[٢] إذ كان يعرف مكانة قاضيه ، وصدقه واخلاصه .

وظن الوزير أن هذا الحكم لا يتأثر به هو ، في خارج مصر . فاتفق أن بعث السلطان رسولاً من عنده الى الخليفة المستعصم ببغداد ، فلما وصل الرسول الى دار الخلافة وأدى الرسالة خرج اليه من سأله :

– هل سمعت هذه الرسالة من السلطان ؟ فقال : لا ، ولكن حملنيها عن السلطان ، ابن شيخ الشيوخ « استاذ الدار »[٣] ، فقال

---

(١) السلوك في معرفة دول الملوك : ق ٢ ج١/٣١٢ ، انظر فوات الوفيات ١/٥٩٥ .

(٢) انظر سيرته .

(٣) منصب الوزير في ذلك العصر .

الخليفة : « إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام ، فنحن لا نقبل روايته » .

فرجع الرسول الى السلطان حتى شافهه بالرسالة ، ثم عاد الى بغداد فأداها[١] .

وهكذا يظهر أثر العزّ في عصره ، يحكم على وزير في مصر ، ويستقيل احتجاجاً ، فيكون له دوي في عاصمة الخلافة ، ويقف عنده الخليفة ، ويفقد الوزير المنطلق المستهتر الثقة عنده وعند الجمهور ، ويكون عبرة للآخرين . وبهذه المناسبة وصف المرحوم الشيخ عبد القادر المغربي شيخنا قائلًا :

« وكانت كلمته الدينية نافذة ككلمة باباوات روما في القرون الوسطى ، وإسقاط العز بن عبد السلام لفخر الدين (خطأ منقول من السبكي) بن شيخ الشيوخ على هذه الصورة يشبه الحرم الذي يلقيه رؤساء الدين المسيحي على أبناء ملتهم »[٢] .

ونعذر العلامة المرحوم في هذه التشبيهات ـ التي نخالفه فيها ، والفرق بين رجال الاكليروس وعلماء الدين في الاسلام ملحوظ

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى : ٥/١٠١

(٢) محمد والمرأة : ٥٦

معروف – لانه منساق مع عصره . ويحاول أن يفهم أبناء زمانه من عامة المتفرنجين .

وقفته مع الملك قطز في الحرب ضد التتار :

تقدم التتار بعد تدمير بغداد الى بلاد الشـــام ، واستولوا على بعض مدنها ، وكادوا ان يقضوا عليها ، ثم على مصر ، آخر معقل للاسلام .

وكان إذ ذاك على عرش مصر المنصور عليّ بن المعز ايبك، وهو صغـــير ، ووصيه الأمير قطز . وعمر الشيـخ عز الدين آنذاك ثمانون سنة ، ولا يقوم بعمل إلا التدريس في المدرسة الصـالحية ، والإفادة في البيت ، وهو من أعيان العلماء ، ويسأل ويستشار في الملمات .

وعند مواجهة الشام هذا الخطر المحدق المبيد بعث الملك الناصر صاحب حلب والشام كمال الدين ابن العديم في سنة ٦٥٧ ﻫ الى مصر يطلب منهم النجدة على قتال التتار .

فجمع قطز القضاة والفقهاء والأعيان لمشاورتهم واتخاذ الخطوات اللازمة لمواجهة التتار ، فحضروا دار السلطنة بقلعة الجبل ، وحضر الشيخ عز الدين بن عبد السلام والقاضي بدر الدين السنجـاري قاضي الديار المصرية وغيرهما من كبار العلماء ، وجلس الملك المنصور في العرش .

« فلما تكامل المجلس قام مدع ، وذكر هيئة سؤال في أمر هلاكو واستيلائه على البلاد ووصوله الى حلب ، وان بيت المال خال من الأموال ، والسلطان صغير السن وضاعت مصالح الرعية ، وان الوقت يحتاج الى إقامة سلطان كبير تخشاه الناس ، ويدفع العدو ، وأن بيت المال محتاج الى المساعدة بشيء من اموال الرعية لإقامة الجند ، وتجهيزهم للسفر وما يعينهم على ذلك »[١].

فلم يكن بطل هذا المجلس الكبير ، ورجل الموقف الرهيب إلا الشيخ الكبير عز الدين فتكلم ، وأحسن الكلام .

قال ابن تغري بردي : « وأفاضوا في الحديث فكان الاعتماد على ما يقوله ابن عبد السلام »[٢].

وقال ابن اياس : « وكان المشار اليه في ذلك المجلس شيخ الاسلام العز بن عبد السلام[٣] . سكت الامراء والقضاة والعلماء على كلام مدعي السلطان ، ولم يجرؤ أحد على ان يعترض على ما عقد الملك الجديد ابو المظفر قطز عزمه ، من فرض ضرائب باهظة على الرعية لتمويل الحرب ، وكادت جماهير الشعب أن ترزح وحدها تحت وطأة الضرائب الفادحة وتكابد الشدة والحاجة دون الأعيان والامراء وبيت السلطان ، لو لم يستدرك الشيخ

---

(١) تاريخ مصر لابن اياس : ١/٩٥ ، وانظر النجوم الزاهرة : ٧/٧٢

(٢) و (٣) المصدران السابقان في مواضعهما .

عز الدين الأمر بموقفه الجريء الصريح ، موقف المرشد المخلص .
فقام وقال :

« إذا طرق العدو بلاد الاسلام وجب على العالم قتالهم . وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم ، بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء من السلاح والسروج الذهبية والفضية . و « الكبابيس المزركشة » وأسقاط السيوف والفضة وغير ذلك . وتبيعوا ما لكم من الحوائص الذهبية والآلات النفيسة ، ويقتصر كل الجند على سلاحه ومركوبه ويتساووا هم والعامة ، وأما أخذ الاموال من العامة مع بقايا في أيدي الجند من الاموال والآلات الفاخرة فلا »[١] .

وانفض المجلس على كلمته هـذه التوجيهية الرشيدة الجريئة . وطبق قطز ما قاله الشيخ . وكان لحسن توجيهه ، وتشجيعه ، ودعائه أثر كبير في رفع نفسية السلطان والقواد والجنود وجماهير الشعب ، فخاضوا المعركة ، وهم واثقون مطمئنون الى نصر الله ، فكسر التتار في « عين جالوت » وانتصر المسلمون ، وقرت عين شيخنا به ، ولم يستطع الاشتراك فيها لكبر سنه .

ويمكن أن نقول مكتفين بتلك الحوادث التي استعرضناها

---

(١) النجوم الزاهرة : ٧٢/٧ وتاريخ مصر : ٩٥/١

بتفصيل ، أن الشيخ عز الدين في معاملته للسلاطين والأمراء كان دائماً صريحاً أبياً أنفاً . يحاول أن يقيمهم – ما أمكنه – على جادة الصواب ، ويرشدهم الى الوجهة الصحيحة ، مدفوعاً في ذلك بواجبه الديني (النصح للأئمة) ، وان لم يمكنه ذلك التوجيه والتقويم تركهم وشأنهم ، وأبعد نفسه منهم لئلا يجبر على ما لا يراه الحق . ورائده في معاملته لهم النصح والصدق والاخلاص ، فكان مرهوب الجانب ، مسموع الكلمة ، معظماً محبباً لديهم ، يقفون عند توجيهاته لاصلاح المجتمع ، وإقامة الحق والعدل . وهكذا ترك بسيرته هذه أثراً عميقاً في عصره وأوساطه المختلفة ، ونوّه به المؤرخون والكتاب .

وشاهد في آخر أيامه احتفال تنصيب خليفة على المسلمين ، من أسرة عباسية ، جرى في مصر .

ظهر في مصر أيام الظاهر بيبرس في سنة ٦٥٩ هـ شخص اسمه أحمد ، وادعى انه من سلالة الاسرة العباسية الحاكمة ، وبعد التثبت من نسبه ، أعلنت خلافته للمسلمين في حفل كبير ، حضره السلطان والأعيان والوجهاء ، وأول من بايعه ، في كلمات السبكي ، العز بن عبد السلام . وقال غيره من المؤرخين انه بايعه بعد الملك

الظاهر بيبرس[1] .

ومما يدل على عظيم تأثيره في عصره ، ونفوذ كلمته ماقاله الملك الظاهر عند وفاته . روى السبكي : « حينما مرت جنازة الشيخ تحت القلعـة وشاهد كثرة الخلق الذين معه قال : (اليوم استقر أمري في الملك ، لان هذا الشيخ لو كان يقول للناس : اخرجوا عليه لانتزعوا الملك مني) » .

* * *

(١) انظر طبقات السبكي: ٨٣/٥ ، والبداية والنهاية ٢٣١/١٣ ، والنجوم الزاهرة ١١٠/٧

الفصل الرابع

وصفه في طبعه ونفسيته

نحاول أن نرى في هذا الفصل الاخير عز الدين في منازعه النفسية ودخائل سريرته ، ونتبيّن مكونات شخصيته ، وقد سردنا سيرته وحياته ، وفصلنا الحوادث المهمة ومواقفه منها .

هيئتـــه : كان الشيـخ العز بن عبد السلام رزق قســامة الوجه ، ونعومة الأسارير ، فهو مقبول الصورة تحبب اليه النفس، وكان مع ذلك مهيباً جليلًا ، تفرض شخصيته احترامها على مخاطبيه ، وتدعو الى الخضوع له في إعجاب به وإكبار له .

وعندنا حادثتان تؤكدان تلك الصفة في واقع حياة الشيخ:

كان عز الدين مقيماً في بستان استأجره بعيداً عن المدينة في سنة من السنوات وقد صدر ضده حكم الإقامة الجبرية من قبل الاشرف ، وهو في هـــذا المـكان فحدث مرة ان جماعة من أعدائه المفسدين

قصدوه في ليلة مقمرة ، فدخلوا البستان وأحاطوا بالدار ، وكان أهله خافوا مما يصيبهم من الأذى خوفاً شديداً ، فنزل الشيخ اليهم ، وفتح باب البيت ، وقال : « أهلًا بضيوفنا » وأجلسهم في مكان محترم . وإذا بعدائهم وشر قصدهم قد طار ، وهم مقبلون على الشيخ ، مجيبون لدعوته برهبة وإكبار.

وينقل السبكي هنا عن ولد الشيخ : « وكان مهيباً مقبول الصورة . فهابوه وسخر الله له[1] » ، ثم قدم لهم الطعام ، فأكلوا وعادوا طالبين الدعاء منه ، حاملين ذكرى جلال شخصيته وسحر هيئته .

والحادثة الثانية تدل على هيبته وقوة شخصيته ، وقفنا عليها في قصة بيع الأمراء المماليك إذ سقط السيف من يد النائب ، وقد جاء ليقتل الشيخ ، وأرعدت مفاصله خوفاً وهلعاً .

وكان مصدر هيبته وسحر شخصيته ، إيمانه القوي ، واعتماده المتين على مصدر القوى ومآب الهيبة والجلال ، الله جلّ وعلا .

تواضعه وعدم التكلف : كان مع علمه وفضله وجلالة شأنه لدى السلاطين ، متواضعاً مع الناس ، متواضعاً مع الله .

---

(١) طبقات السبكي : ٥/٩٦

وهو الذي قال ، « يا ولدي ! أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله » .

وهكذا كان متواضعاً في مظهره بعيداً عن التكلف ، لا يتأنق لكاذب الحشمة ومألوف الوقار ، حتى لم يكن يتقيد بلبس العمة على عادة العلماء الفقهاء ، بل ربما لبس قبع لباد (طاقية الصوف) وكان يحضر المواكب السلطانية به[١] . وقال السبكي بمناسبة الكلام على اعطائه قطعة من عمامته تصدقاً للفقير : « فكأنه كان يلبس تارة هذا وتارة هذا حسب ما يتفق من غير تكلف »[٢] . ونص كذلك ابن العماد الحنبلي على بعده من التكلف بقوله : « ... مضافاً الى ما جُبل عليه من ترك التكلف »[٣] .

ومن أمثلة تواضعه وبعده عن التكلف ، ما رأيناه في قصة بيع الأمراء المماليك ، عندما غادر الشيخ القاهرة حاملاً حوائجه وعائلته على حمير وهو ماش خلفهم على قدميه . هذا هو موكب قاضي القضاة في الدولة المصرية ، المستقيل من منصبه ، الغاضب على السلطان .

ولم يكن هذا التواضع ليجعله ضعيفاً متخاذلاً أمام أقوياء الملوك

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى : ٨٣/٥

(٢) نفس المصدر .

(٣) شذرات الذهب : ٣٠٢/٥

وأشداء الأمراء، وقد مرت بنا حوادث دلت على ترفعه على السلاطين، ومؤاخذته إياهم . وسنرى أمثلة أخرى قريباً .

وكان دافعه في تواضعه هـذا ، تقواه وبساطته الطبيعية ، فعاش متواضعاً في غير ضعف ، ومترفعاً في غير كبرياء . بساطة في المعيشة ، وعدم التكلف في المظاهر ، وعزة في النفس .

جرأته في الحق وصلابته في الدين : ان الجرأة والصلابة في الدين أبرز سمة من سماته الطبيعية التي اشتهر بها الشيخ عز الدين ، وعرف لدى الخاص والعام . والحوادث التي جرت له في هـذا الخصوص تملأ حياته كلها . وما مواقفه الحاسمة إلا صدى لهذه الشجاعة الطبيعية والصلابة الدينية . ولقد نوّه مترجموه بوصفه هذا كثيرا .

قال اليافعي : « وكان عز الدين رحمه الله يصدع بالحق، ويعمل به ، متشدداً في الدين لا تأخذه في الله لومة لائم . ولا يخاف سطوة ولا سلطان ، بل يعمل بما أمر الله ورسوله ، وما يقتضيه الشرع المطهر » . ثم يتابع في عبارته المسجوعة « كان رضي الله عنه جبل إيمان يصادم السلطان كائناً من كان، بمشافهة الانكار تحت عظام الأخطار »[1]

---

(١) مرآة الجنان : ١٥٥/٤

وهـذا وصف صادق رأينا نماذج عملية له في سيرة الشيخ ومواقفه .

وقال طاش كبري زاده : « وكان رحمه الله يتكلم بالحق ويصدع به ، لا تأخذه في الله لومة لائم . ينادي سلاطين مصر باسمهم في مجالسهم العظام ، عند تقبيل العلماء أيديهم ، بل الأراضي بين أيديهم ، جزاه الله عن العلم والاسلام خيراً »[١] .

وقال السبكي : « لم ير مثل نفسه ، ولا رأى من رآه ، مثله علماً وورعا ، وقياماً في الحق ، وشجاعة وقوة جنان ، وسلاطة لسان »[٢] .

ورأينا أمثلة شتى لشجاعته وقوة جنانه فيما مر معنا ، ومن هذا ما رواه السبكي :

قال : « سمعت الشيخ الامام رحمه الله ، يقول سمعت شيخنا الباجي ، يقول : طلع شيخنا عز الدين مرة الى السلطان في يوم عيد ، الى القلعة ، فشاهد العسكر مصطفين بين يديه ، ومجلسَ المملكة وما السلطان فيه يوم العيد من الابهة ، وقد خرج على قومه في زينته على عادة سلاطين الديار المصرية . وأخذت الأمراء

---

(١) مفتاح السعادة : ٢/٢١٣

(٢) الطبقات : ٥/٨٠

تقبل الارض بين يدي السلطان ، فالتفت الشيخ الى السلطان ، وناداه :

– يا أيوب! ما حجتك عند الله ، إذا قال لك : ألم ابوىء لك ملك مصر ، ثم تبيح الخمور ؟ فقال : هل جرى هذا ؟

فقال الشيخ : نعم ، الحانة الفلانية ، تباع فيها الخمور ، وغيرها من المنكرات ، وانت تتقلب في نعمة هذه المملكة .

يقول راوي الحكاية : «يناديه كذلك بأعلى صوته ، والعساكر واقفون» .

فقال : يا سيدي ! هذا أنا ماعملته . هذا من زمان أبي.

فقال الشيخ : أنت من الذين يقولون : (إنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أمَّةٍ) .

وسأله تلميذه الراوي مستفسراً عن سبب هذه المؤاخذة والانتقاد أمام الملأ في مثل هذا اليوم العظيم ، فأجابه :

« يا بني ! رأيته في تلك العظمة ، فأردت أن أهينه لئلا تكبر عليه نفسه ، فتؤذيه » .

قال الباجي : أما خفته ؟

قال : «والله يا بنيّ ! استحضرت هيبة الله تعالى، فصار السلطان قدامي كالقط » .

وفي هذه الكلمات البسيطة المخلصة كشف الشيخ عن سر جرأته في الحق وشجاعته : استحضار هيبة الله وعظمته، الذي يجعل أشداء الملوك كأضعف الدواب أمامه .

وهو الذي قال لرسول الملك الصالح اسماعيل ، وجاء يُغريه بالمناصب ويهدده بالعقاب ، ويطلب منه أن يخضع للسلطان ويقبل يده بعد محنته في دمشق : « والله ! يا مسكين ! ما أرضاه أن يقبل يدي فضلًا عن أن أقبل يده ، يا قوم ! أنتم في واد وأنا في واد » .

ومن الأمثلة على سلاطة لسانه وشجاعة جنانه ، وشدته في الدين قوله للملك الظاهر بيبرس ، وقد أراد أن يأخذ لنفسه بيعة من الشيخ بعدما نادى نفسه ملك مصر ، قال الشيخ : « يا ركن الدين ! أنا أعرفك مملوك البندقدار » فما بايعه حتى قامت الشهادة الشرعية على عتقه .

ومما أخذ عليه ، رحمه الله ، غلوه في هذه الشدة في الدين ، وحدته في الكلام ، وقد تنفع الملاينة والرقة ما لا تنفعه الصلابة والقسوة والمؤاخذة . ولصلابته هذه وحدة لسانه لم يكن على وفاق أبداً مع أولي الأمر وأصحاب الحكم . فقد قال تلميذه الحافظ أبو بكر بن مسدي الأندلسي :

« وقضى من الجاه والرياسة ما شاء من لبانات وأوطار، وحاول

ما حاول من ذلك على أحسن المسالك ، خلا بقيات في أول السابقة ينفشها وأعراض يستعرضها ولا يستروضها ، فالسيف وإن كان جزاراً قد ينبو ، وكم جواد دون الغاية يكبو ، فلم يعد انصرف عن تلك المناصب ، وكان عليه من نفسه أشأم ناصب »[1] .

ولكن هذه طبيعته الحادة قد خلق عليها ، ولا يستطيع أن يغلب عليها بهدوء الموجه الناصح وحكمة الباني الهادىء ، وهذه هي ميزته ورمز شخصيته : الصلابة في الحق ، والجرأة في النقد . وكم من شخصيات قوية ذات تأثير عظيم في المجتمع والعصر كانت بهذه الصفة ، فانها إن لم تستطع بناء المجتمع على الاسس السليمة التي أرادتها ، فانها هزت النفوس ، وأيقظت الشعور ، ونبهت الوعي بطبيعتها الثائرة الملتهبة ونقدها اللاذع المرّ . فمهد هذا الثائر الناقد الطريق وسهل المهمة لمن جاء بعده من البناة الهادئين ، ولنا مثال قريب في ذلك في شخصية جمال الدين الافغاني الثائر العنيف ، وتلميذه محمد عبده الهادىء المسالم .

وكان من الجرأة في قول الحق ، وتطبيقه ، اذا كان صاحب منصب مسؤول ، بحيث لا يبالي بالمخاطرة بالنفس ، وهو القائل بأن

---

(١) نقلا عنه في تاريخ علماء بغداد : ١٠٥-١٠٦

« المخاطرة بالنفوس مشـــروعة في إعزاز الدين » الخ .

وخاطر بنفسه فعلاً في قصة بيع الأمراء المماليك كما رأينا.

صدقه واخلاصه : وهذا الذي قلناه عن جرأته وصلابته ، ورباطة جأشه عند الأخطار ، لم يكن ليستقيم كل هـــذا الصرح لعز الدين لو لم يكن بناؤه على أساس من الصدق مع الله والاخلاص له متين ، والله سبحـــانه وتعالى يأخذ دائماً بأيدي عباده المخلصين : « إِنَّ الذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ، ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلائِكَةُ ألاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا » .

وهكذا الشيـخ عز الدين ، صدق مع الله في السر والعلن ، فرزقه الله الثبات والصمود في معارك الحياة المتجددة ، وأخلص له في دينه ، وابتغى وجهه ، وقصد مرضاته ، ففتح الله له الصدور ، وأخضع له القلوب ، وأخرّ له جباه الملوك . وتكفينا الامثلة على هذا فيما مرّ من سيرته ، ومواقفه الحاسمة .

وكذلك كان صـــادقاً مع السلاطين وعامة الناس مخلصاً لهم ، ينصحهم بصـــدق واخلاص ، ويوجهم الى الخير دون مجاملة أو منافقة أو مجاراة .

طلب منه السلطان الملك الاشرف بعد نهاية فتنة الحنابلة أن يعوده في مرض موته ، فعاده الشيخ، وسأله السلطان أن ينصحه ، فنصحه ، وصدق في نصيحته . كان الأشرف في خيمة ضربت « بالكسوة »[١] وجعل دهليزها الى مصر ، إظهاراً للعداء والاستخفاف بأخيه السلطان الكامل ، وكانت بينهما خصومة . ورأى الشيخ هذا فنصحه بأن لايقطع رحم أخيه الكبير ، والوقت وقت هجوم التتار على الشرق ، وهو في مرض الموت ، فانصاع السلطان لهذه اللفتة الصادقة المخلصة ، وأمر بتحويل اتجاه الخيمة ، والشيخ حاضر[٢] . وكذلك نصحه باغلاق بعض الحانات تباع فيها الخمور ، وهو لا يعلمها ، وأن تلغى المكوس الجائرة التي فرضها على الرعية عماله وغير ذلك . وكانت لكلماته الصادقة المخلصة تأثير في نفس السلطان الذي قدره حق القدر بعد المحنة ، وأمر بالتنفيذ في الحال[٣] .

وكذلك صدق مع الملك قطز ، قاهر التتار ، ونصحه مخلصاً أن لايفعل وكان قد صمّم على فرض الضرائب على الرعية وأخذ أموالها لتمويل الحرب ضد التتار ، وعنده وعند الامراء والقواد

---

(١) من ضواحي دمشق من ناحية الاردن .

(٢) انظر طبقات السبكي : ٩٩/٥

(٣) نفس المصدر : ١٠٠/٥

مال وعتاد ،زائد عن حاجاتهم . وكان لهذه النصيحة الصادقة المخلصة تأثيرها كما عرفناه .

وصدق مع الناس حينما منعهم من بيع الاسلحة من الفرنج الأعداء بدمشق ، وعرف انهم يتأثرون بفتواه في تجارتهم وهم يعيشون على بيع السلاح ، وباع من باعها لهم من ضعاف النفوس تكسباً لقوته . وكان بامكانه أن يسمح لهم بالبيع متأوّلاً ، ولكنه قال : « يحرم عليكم مبايعتهم لأنكم تتحققون انهم يشترونه ليقاتلوا به إخوانكم المسلمين[1]» .

وهكذا أبي إلا أن يصدق مع العباد كما صدق مع رب العباد في عقيدته وسلوكه .

الاعتماد على الله : وكان من مصدر جرأته وشجاعة جنانه ، اعتماده القوي على الله وركونه اليه ، فبقوته يتقوى وبتثبيته يثبت . وقال في محنته : « فمن آثر الله على نفسه آثره الله » .

ولم يكن استقباله أعداءه المهاجمين في قصة البستان في بيته ، وخروجه على خصمه نائب السلطنة أعزل بدون خوف وقد جاء ليقتله والسيف مسلول في يده ، إلا مظهرين من مظاهر اعتماده القوي على الله . وهكذا حينما انتقد الصالح اسماعيل سلطان دمشق

(١) طبقات السبكي : ١٠٠/٥

على منبر الجامع لخيانته السياسية ، وعندما حاسب الصالح نجم الدين ايوب في يوم العيد ، في الحفل العام على تفريطه في بيع الخمور .

الخضوع للحق : ومع تصلبه في الحق ومطالبته المسؤولين باقامته ، يخضع للحق أسرع شيء اذا تبين انه أخطأ ، أو عرف أن الحق ليس في جانبه .

نقل السبكي عن القاضي عز الدين الهكاري : « ان الشيخ عز الدين أفتى مرة بشيء ثم ظهر له انه خطأ ، فنادى في مصر والقاهرة على نفسه : من أفتى له فلان بكذا فلا يعمل به ، فانه خطأ »[1].

وتجنب الشيخ مجالسة السلطان الاشرف ، وطالما ألح عليه طالباً زيارته بعد المحنة . ثم مرض السلطان فبعث اليه يسأله أن يعوده ويدعو له ، وهكذا قطع الحجة عليه فزاره عز الدين ودعا له ، لأن عيادة المريض واجب من واجبات الدين .

زهده وورعه : اتفق مترجموه على ورعه وزهده ، ودلت عليه سيرته ومعيشته .

قال الكتبي : « وكان ناسكاً ورعاً »[2].

---

(١) طبقات السبكي : ٨٣/٥

(٢) فوات الوفيات : ٥٩٥/١

وقال ابن العماد الحنبلي: « ... هذا مع الزهد والورع»[١] الخ.

عزم السلطان الملك الاشرف عند نهاية محنة العز في فتنة الحنابلة واقتناعه بصحة عقيدة الشيخ أن يسترضيه ويعوض عليه بالمال والثراء وقال: والله! لأجعلنّه أغنى العلماء. ولكن عز الدين ظل مبتعداً عن مجالسه بدافع من ورعه وزهده، ولم يرد أن يستغل انتصاره، في سبيل مصالحه الشخصية.

ولما استطاع السلطان أن يفوز بالاجتماع معه في مرضه وطلب منه أن يصفح عنه ويجعله في حلّ منه، قال له الشيخ: «أما محاللتك، فاني كل ليلة أحالل الخلق، وأبيت وليس لي عند أحد مظلمة. وأرى أن يكون أجري على الله ولا يكون على الناس، وأن يكون أجري على الله ولا يكون على خلقه أحب اليّ»[٢].

ثم عند نهاية هذه الجلسة التي نصحه فيها الشيخ، قدّم اليه السلطان مائة دينار مصرية هدية، فردها الشيخ عليه قائلاً: «هذه اجتماعة لله لا أكدرها بشيء من الدنيا»[٣].

وأرسل له الملك الظاهر بيبرس لما مرض، وقال: «عين مناصبك

---

(١) شذرات الذهب: ٣٠٢/٥

(٢) طبقات السبكي: ٩٨/٥

(٣) نفسه: ٩٩/٥

لمن تريد من اولادك » فقال الشيخ « ما فيهم من يصلح، وهذه المدرسة الصلاحية للقاضي تاج الدين »[١] .

وليس معنى ذلك انه لم يكن في ابنائه من يصلح للتدريس، فابنه الشيخ عبد اللطيف كان عالماً فقيهاً[٢] وإنما لم يسمح ورع عز الدين ان يجعل منصب التدريس وراثة لأولاده .

ومن مظاهر زهده في المال والمتاع ما رأيناه في قصة بيع الأمراء عندما خرج من القاهرة مستقيلاً من منصب القضاء ، وكل امتعته على حمار واحد وهو سائر خلف اهله ماشياً على قدميه .

وظهر لنا من استعراض سيرته وحياته انه كان دائم الابتعاد من الملوك والامراء ، قليل الميل اليهم ، عظيم العزوف عن الجاه والمال والمناصب التي كثيراً ما يغرون بها العلماء والفضلاء ، فيفتنون بها . وما ذاك إلا لزهده في متاع الدنيا وزينتها ، وتطلعه الى ما عند الله من باقي النعيم ، وجزيل الأجر .

حبه للتصدق : ومع انه لم يكن رجل درهم ودينـــار ومال وغنى ، وكان زاهداً مكتفياً بالكفاف ، فكان سخي اليد كثير الصدقات . يحب ان يعطي الفقير ، ويغني ذا الحاجة ، ويكافىء من خدمه .

---

(١) فوات الوفيات : ١/٥٩٥

(٢) وردت ترجمته في طبقات الشافعية الكبرى : ٥/١٣١

حكى قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة : « ان الشيخ لما كان بدمشق وقع مرة غلاء كبير حتى صارت البساتين تباع بالثمن القليل. فأعطته زوجته مصاغاً لها ، وقالت : اشتر لنا به بستاناً نصيف به . فأخذ ذلك المصاغ وباعه وتصدق بثمنه . فقالت: ياسيدي ! اشتريت لنا ؟ قال : نعم ، بستاناً في الجنة ؛ إني وجدت الناس في شدة فتصدقت بثمنه . فقالت له : جزاك الله خيراً »[١] .

وقال السبكي : « وحكي انه كان مع فقره كثير الصدقات، وانه ربما قطع من عمامته واعطى فقيراً يسأله ، اذا لم يجد معه غير عمامته »[٢] .

هذا مع عامة الناس في شدة حالهم ومع الفقراء على سؤالهم ، وكذلك كان طلق اليد مع من يخدمه او يحسن اليه ، ولقد قرأنا في قصة فتنة الحنابلة انه اهدى الى الوزير الغرز خليل ، رسول السلطان – وكان تأدب معه في إبلاغ نقمة السلطان اليه – سجادة كان يصلي عليها ، معتذراً اليه بأنه لا يملك شيئاً غيرها يليق بمكانه .

وهكذا يأبى الشيخ الفقير اليد ، الغني القلب الا ان يعطي

---

(١) طبقات السبكي : ٨٢/٥ و ٨٣

(٢) نفس المصدر : ٨٣

ويهب ، فاذا لم يكن معه شيء غير سجادته فسجادته ، وإذا لم يكن معه غير عمامته فقطعة من عمامته .

عزيمته في أمور الدين : ويظهر من تتبع سيرة العزّ انه كان صاحب « عزيمة » في أمور الدين ، سواء ما يتعلق منها بالعقائد والعبادات ، وما يتصل بالمعاملات والسياسة والاجتماع . فيختار دائماً المستوى الأعلى منها ، ولا يلجأ الى « الرخص » ولا يتأوّل .

وما حادثة اغتساله بالجليد المكسور ثلاث مرات في الليلة الوحداة حتى أغمي عليه إلا مظهر من مظاهر تلك العزيمة في العبادات منذ بداية حياته ، وكان له ان يتأوّل فيتيمم .

وكذلك تمسكه بعقيدته الأشعرية بشدة وإصرار في فتنة الحنابلة ، لون من ألوان عزيمته في إظهار عقيدته ، وقوله : « هذه الفتيا كتبت امتحاناً لي ، والله ! ما كتبت فيها إلا ما هو الحق » يصور لنا تلك العزيمة في ألفاظه .

وليست المواقف الحاسمة في حياته التي وقفها إلا تعبيراً عن هذه العزيمة القوية ، ولو تأوّل وتعلل ، وكم تأوّل العلماء الفقهاء ، لتجنب كثيراً من المشاكل التي عاناها ، وعاش في رغد وهناء . ولكنه لم يكن من تلك الطائفة الضعيفة المتخاذلة .

اعتداده بشخصيته : وكان مع تواضعه وفقره ، وزهده وورعه ، وبعده عن الجاه والمناصب ، يعرف نفسه ، ويضعها في موضعها . فلا اتضاع ، ولا خمول ، ثم لا عُجب ولا خيلاء . قال في الرسالة الأخيرة التي كتبها الى الاشرف في محنته : «والله أعلم بمن يعرف دينه ويقف عند حدوده وبعد ذلك ، فإنّا نزعم أنّا من جملة حزب الله وأنصار دينه وجنده» .

وكذلك أظهر اعتداده بعلمه عندما قال لصاحب الكرك ، وقد سأله الاقامة عنده مغتنماً فرصة تذمره من الإقامة في دمشق : «بلدك صغير على علمي» .

وهكذا لم يرض عز الدين أن يهبط بعلمه ويضيع مواهبه ، في بلد صغير كالكرك ، وهو الذي سيسطع نجمه في علم جليل كأصول الفقه في مصر عظيم كالقاهرة .

ظرفه ولطفه : وفي الأخير نريد أن نختم هـذا الفصل بهذا العنوان الخفيف الطريف ، فقد يخيل للمرء وهو يقف على ماذكر من صلابة الشيخ وشدته في الدين ، وزهده وورعه ، واعتداده بعلمه واحترامه لنفسه ، أن الرجل لم يعرف من جوانب الحياة النفسية إلا القسوة والصرامة ، والجفاف والخشونة ، ولم يرزق شيئاً من لطيف الذوق وخفيف الظل .

ولم يكن كذلك عز الدين ، بل رزق من الرقة النفسية والذوق العالي ماجعله يتذوق الشعر الرقيق ويجيد النثر ، ويحسن التعبير . ولعل صوفيته كانت استجابة لهذه النفس الرقيقة ، ومُنح خفة الروح وظرافة الطبع ،فكان يسيغ التندر والتفكه ، ويأتي به بعض الأحيان . وذلك ما نصّ عليه مترجموه .

قال ابن كثير : « وكان لطيفاً ظريفاً يستشهد بالأشعار»[١]

وقال ابن العماد الحنبلي : « وكان مع شدته فيه حسن محاضرة بالنادرة والشعر »[٢] .

وقد عرفنا عن استشهاده بالأشعار عند الكلام على أسلوبه ، وقد استشهد في كتابه « قواعد الاحكام في مصالح الأنام » برقيق الشعر ، ومما استشهد به في رسالته عن عقيدته .

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حبّ الديار شغفن قلبي ولكن حبّ من سكن الديارا

بل لم يكن يحفظ الشعر الجيد ويستشهد به ويطرب له فحسب ، وإنما حاول أن يقرض الشعر ، وينشد لمن في حضرته مستطرباً ، إذا صفا له طبعه وتهيأ مجلسه ، وإن لم يستطع المضي فيما

---

(١) البداية والنهاية : ٢٣٥/١٣

(٢) شذور الذهب : ٥٩٥/١

حـــاول ورواته الطبـع طلب من الحضور أن يكملوا ما بدأ فيه .

ذكر السبكي في رواية متسلسلة عن الشيـخ فخر الدين بن بنت أبي سعد ، قال : « أنشدنا الشيـخ عز الدين من لفظه بنفسه ، ولم يكن له من النظم غيره . وقد أنشـــده للطلبـة وقال لهم أجيزوه :

لو كان فيهم من عراه غرام　　ما عنّفوني في هواه ولاموا

فأجازه شمس الدين الاسواني ، قاضي أسوان ، وقال :

لكنهم جهلوا لذاذة حسنه　　وعلمتها ولذا سهرت، وناموا

لو يعلمون كما علمت حقيقة　　جنحوا الى ذاك الجناب وهاموا[1]

إلى آخره في قصيـــدة طويلة . وهو كما يظهر شعر صوفي ، وكان الشيـخ العز متصوفاً رقيق العاطفة ، لطيف الوجدان».

أما اليافعي فقد بالغ وعم القول ، رغم هذا التصريح من أحد تلامذته بأنه لم يكن له من الشعر غير بيت واحد . إذ قال: «وكان مع هذه الجلالة التي حازها والعلوم التي حواها ينظم الأشعار السهلة» ثم حكى في رواية متسلسلة عن سديد الدين أبي محمد الطيبي الشـــافعي قال : أنشدني قاضي القضـــاة عز الدين بن عبد السلام لنفسه

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى : ١٠٢/٥

قصيدة منها :

أوجه وجهي نحوهم مستشفيـــاً اليهم

بهم منهم إذا الخطب أعيـــاني

فهم كاشفو ضري وكربي وشـــدتي

وهم فارجو همي وغمي وأحزاني. الخ[١]

وهي سبعة أبيات مروية ، وربما نظمهـــا الشيـخ ولم يعرفها الراوي الاول ، وعلى كل حال هو نوع من المناجاة الصوفية في لغـة عادية ، وأقرب الى النثر السهل المعتـــاد منه الى الشعر الفني .

وقد ذكـــر لنا بروكلمن قصيـدة للشيخ في مدح الكعبة الشريفة ، وربما كانت هـــذه الأبيات من تلك القصيدة .

ومن حبه للنكتة ما جاء في ترجمـــة تلميذه العلامة تاج الدين الفركاح . قال الكتبي: «وكان الشيخ عز الدين يسميه (الدُويك) لحسن بحثه»[٢].

---

(١) مرآة الجنان : ١٥٧/٤

(٢) فوات الوفيات : ٥٣٢/١

تحليل شخصيته ونفسه :

ويظهر لنا بتحليل أوصافه الطبيعية ونفسيته انه :

١ – كان قوي النفس والعزيمة بحيث يستهين بكل شيء : بالمناصب والجاه ، بالملوك والأمراء في سبيل الحق ، وانه كان يعرف قوة نفسه ، بل كانت تدفعه هذه القوة الى أكثر مما يعرفها عن نفسه .

٢ – كان كبير النشاط لا يفتأ يعمل ويعمل .

٣ – كان يحب الصراع والانتصار للحق ، وبها كانت تظهر قوة نفسه وكبير نشاطه ، وما جرأته وبعض مواقفه إلا نتيجة لذلك .

٤ – كان يحب المجتمع الذي يعيش فيه ويحب صالحه ونفعه ، فكان يوجه مواهبه وجلّ نشاطه الى خدمة ذلك المجتمع على اسس الدين التي أتقن درسها وفهمها ، فأحبها وأخلص لها .

وهو بنفسه القوية وطبيعته الثائرة ولسانه الصريح ومزاجه الحاد ، ثم بتقشفه على نفسه وأهله ، وزهده في متاع الدنيا ، وتواضعه في نفسه وصلابته في دينه يشبه الى حد كبير بسيدنا عمر رضي الله عنه ، ولو اختلفت أعمالها ووظائفهما ، وقد

تتراءى لنا صورة مصغرة لشخصية عمر رضي الله عنه في شخصية عز الدين .

فسيدنا عمر رضي الله عنه قوي عنيف في مؤاخذة الناس ومحاسبة عماله ، يعنفهم ويوبخهم إذا بدا من أي واحد منهم بادرة انحراف ، فيضرب ابن عمرو بن العاص بالسياط قصاصاً على الملأ ، ويحاسب سعد بن أبي وقاص على بنائه قصـراً في العراق ، ويأمر بحرقه . وهكذا يضع عيناً ساهرة على المجتمع ، ثم يخضع للحق ، ولا يرى غضاضة في نفسه أن يعلن على المنبر أن : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » . وكذا نرى عز الدين شـديداً في محاسبة الأمراء والملوك على تفريطهم في تنفيذ أحكام الشرع ، ويلح على تطبيقها بكل دقة إذا كان مسؤولاً في دائرة عمله ، كما في قصة بيع الامراء الاتراك ، وهدم مقصف الوزير وإسقاط شهادته وغير ذلك . ثم حينما يخطيء هو في فتواه ينادي على نفسه في البلد ، أن هذا خطأ منه ، فلا يعمل به أحد .

ويزهد سيدنا عمر في زينة الدنيا ، ويتقشف على نفسه وأهله ، فإذا وفـّرت زوجه شيئاً من مصروف البيت ، وأعدت الحلوى للأكل ، ينقص عمر رضي الله عنه قدر هذا المال من راتبه من بيت مال المسلمين ، لانه زائد عن حاجتهم ، والمسلمون أحق به منهم . وهكذا يتصدق عز الدين بالمال الذي قدمته له زوجه لشراء البستان .

أما شدة عمر رضي الله عنه في الدين وجرأته في الحق، فمعروف للأنام، وهو من أول يوم أسلم فيه أعلن اسلامه صريحاً عالياً في حرم مكة، وكان الصحابة يُخفون إيمانهم إتقاءً لاضطهاد قريش، وظل هكذا بعد ذلك طوال حياته . وكان عز الدين يجهر بالحق عالياً، على منابر الجوامع، وفي محافل الملوك، لا يخاف ولا يهاب . فتشابهت نفسياتهم في نواحي متعددة، وربما اقتدى عز الدين بسيدنا عمر في سيرته وانتهج نهجه في سلوكه .



خاتمة

انتهينا من البحث في حياة سلطان العلماء الشيخ العز بن عبدالسلام ، ومحاولة التعرف لشخصيته بجوانبها المختلفة في وضوح ودقة وتفصيل ، فرأيناه عالماً جليلاً يدرس ويؤلف ويفتي ، وقاضيـــاً عدلاً يحكم ويقضي ، وعرفناه عاملًا مجاهداً يوجه ويرشد ، ويعترض وينتقد الملوك والامراء والعامة على السواء ، وهو في هـــذا يتحمل الاذى والمشقة ، ويتعرض للخطر والاضطهاد ، فلا يبالي ولا يقف ، ويواصل النشاط ، ويدأب على العمل ويقيم على الحق ، ويحاول إقامته في المجتمع حتى قضى .

وحاولنا أيضـــاً — ونحن نستعرض أوجه نشاطه وأعماله — أن نفهم الأثر الذي تركه في مختلف الاوسـاط والبيئات والاشخاص .

ولنا بعد هذا أن نقول : ان الشيـخ العز بن عبد السلام يوحي الينا بسيرته : بجرأته وصلابته في الحق ، بزهده وورعه ، بنزاهته وعفته ، بتواضعه واعتداده ، بنشاطه الدؤوب وعمله المتواصل في ميادين الحياة الاجتماعية ، ان البضاعة الحقيقية والمتاع الاصيل في الحياة

هو الذي كان يحمله بين جنبيه ، وكان بذلك رجل عصره ، وموجّه زمانه ، وقدوة لمن بعده .

وأبرز ما تلهمنا سيرته ، الوقوف دائماً في جانب الحق ، والصمود في هذا الموقف ، والوعي الكامل لاتجاه المجتمع وموجهيه من الحكام والملوك ، ونقدهم إذا انحرفوا ومالوا عن جادة الصواب ، والالحاح على هذا النقد بجرأة واعلان وثبات . ثم عدم الخضوع في سبيل ذلك للمغريات من الجاه والمناصب ، والتهديدات من الحرمان والحبس والاضطهاد ، واليقين الواثق بان الحق هو الذي سينتصر وان ظهر صعب التحقيق بعيد المنال ، وان اوذي صاحبه في سبيله واضطهد . والاخلاص والصدق وابتغاء وجه الله بعد هو الموصل الى هذا الهدف الرفيع والغاية المنشودة .

ونذكر هنا بيت شعر لشاعر الاسلام الفيلسوف محمد اقبال ، وكأنه لخص حياة الشيخ العز ، وهو يصف «المؤمن الكامل» .

« ناعم كالحرير اذا كان في حلقة خلانه ، فولاذ اذا دارت المعركة بين الحق والباطل » .

ويوحي الينا انتاجه العلمي الوفير الغزير ، مع كل هذا النشاط العملي ، انه يمكن الجمع بين العلم الراسخ والعمل المجدي إذا صحت عزيمة المرء وكرّس حياته للجد ، وارتفع عن رخيص الغايات ، وعرف قيمة نفسه فشغلها فيما يفيد ويخلد . فهنا رسالة للعالم المفيد المنتج ، وقدوة للعامل المجاهد المخلص .

المراجع

١ – الاشارة الى الإيجاز في بعض أنواع المجاز : العز ، عبد العزيز بن السلام ، المطبعة العامرة باستنبول سنة ١٣١٣

٢ – الاشباه والنظائر : السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن ، طبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة .

٣ – ايضاح المكنون : البغدادي ، اسماعيل باشا البابانى ، طبعة المعارف الجليلة ، تركية سنة ١٩٤٥

٤ – البداية والنهاية –١٣ : ابن كثير ، ابو الفداء اسماعيل بن عمر مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٣٢

٥ – تاريخ علماء بغداد (المسمى بمنتخب المختار) : ابن رافع ، أبو المعالي محمد بن رافع السلامي
مطبعة الاهالي في بغداد سنة ١٣٥٧

٦ – تاريخ القضاة في الاسلام : ابن عرنوس ، القاضي محمود ابن محمد . المطبعة الاهلية الحديثة بالقاهرة ١٩٣٤

٧ – تاريخ مصر (المسمى ببدائع الزهور في وقائع الدهور)–١

ابن اياس ، احمد بن محمد المصـــري
طبعة بولاق سنة ١٣١١ ﻫ

٨ – جامع كرامات الاولياء – ٢ : النبهاني، يوسف بن اسماعيل
دار الكتب العربية الكبرى سنة ١٣٢٩

٩ – حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة : السيوطي ،
جلال الدين بن عبد الرحمن . مطبعة ادارة الوطن ١٢٩٩

١٠ – الدارس من تاريخ المـــدارس ١ – ٢ : النعيمي ،
عبد القادر بن محمد الدمشقي . مطبعة الترقي سنة ١٩٤٨

١١ – الذيل على الروضتين (المنشور باسم رجال القرنين السادس
والسابع) : ابو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن المقدسي
نشر عزة العطار الحسيني سنة ١٩٤٧

١٢ – الروضتين في أخبار الدولتين النورية والايوبية : ابو شامة ،
شهـــاب الدين عبد الرحمن المقدسي
مطبعة وادي النيل بالقاهرة ١٢٨٧

١٣ – السلوك في معرفة دول الملوك : المقريزي، تقي الدين بن احمد
طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٤ – شـذرات الذهب في اخبار من ذهب – ٥ : ابن العماد
الحنبلي ، عبد الحي . مكتبة القدسي بمصر ١٣٥١

١٥ - طبقات الشافعية الكبرى - ٥ : السبكي ، تاج الدين عبد الوهاب ، المطبعة الحسينية

١٦ - طبقات الشافعية : الحسيني المصنف ، ابو بكر هداية الله طبعة بغداد ١٣٥٦

١٧ - طبقات الصوفية : الشعراني ، عبد الوهاب

١٨ - طبقات الشاذلية الكبرى : الكوهن الفاسي ، الحسن بن محمد المكتبة الفاسية المصرية ، القاهرة سنة ١٣٤٧

١٩ - عصر سلاطين المماليك وانتاجه العلمي والادبي : سليم ، محمود رزق . مكتبة الآداب بمصر ١٩٤٧

٢٠ - فوات الوفيات : الكتبي ، محمد بن شاكر بن احمد مطبعة النهضة المصرية ١٩٥١

٢١ - فهرس بروكلمن باللغة الالمانية ج١ ١٩٤٢م وملحقه ١٩٣٧م ، ج١ طبعة برل - ليدن

٢٢ - فهرس المخطوطات المصورة : سيد ، فؤاد

٢٣ - قاموس الاعلام - ٢ : الزركلي ، خير الدين الطبعة الاولى مطبعة الترقي ١٩٢٧

٢٤ - قضاة دمشق : ابن طولون ، شمس الدين مطبعة الترقي بدمشق ١٩٥٦

٢٥ – قواعد الاحكام في مصـــالح الانام ، جزءان : العز ، عبد العزيز بن عبد الســـلام
مطبعـــة المكتبة التجارية الكبرى

٢٦ – كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : حاجي خليفة ، مصطفى بن عبـــد الله
طبعة المعـــارف الجليلة – تركية ١٩٤١

٢٧ – اللباب في تهذيب الانساب : ابن الاثير ، عز الدين علي ابن محمد ١٣٥٧

٢٨ – مرآة الجنان وعبرة اليقظان – ٤ : اليافعي ، ابو محمد عبد الله بن اسعد . طبعة حيدر آباد – ١٣٣٧

٢٩ – مرآة الزمان – ٨ : سبـط ابن الجوزي ، ابو المظفر
طبعة حيدر آباد – ١٣٣٧

٣٠ – محمد والمرأة : المغربي ، عبد القادر

٣١ – مختصر دول الاسلام – ٢ : الذهبي ، الحافظ شمس الدين محمد بن احمد . طبعة حيدر آباد ١٣٣٧

٣٢ – مختصر تاريخ البشر – ٣ : ابو الفداء، الملك المؤيد اسماعيل
المطبعة الحسينية بمصر

٣٣ – معجم المؤلفين – ٥ : كحالة ، الاستاذ عمر رضا

٣٤ – معجم البلدان : الحموي ، ياقوت بن عبد الله
طبعة ليبزك سنة ١٨٧١
٣٥ – المدخل الفقهي العام –٢ : الزرقاء ، الاستاذ مصطفى احمد
الطبعة الخامسة – جامعة دمشق سنة ١٩٥٨
٣٦ – من رجال التاريخ : طنطاوي ، الاستاذ علي
٣٧ – معجم المطبوعات العربية المعربة : سركيس ، يوسف اليان ،
مطبعة سركيس سنة ١٩٢٨
٣٨ – مفتاح السعادة –٢ : طاش كبري زاده ، احمد بن مصطفى ،
طبعة حيدر آباد ١٣٢٩
٣٩ – النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة –٧ :
ابن تغري بردي ، جمال الدين ابو المحاسن يوسف
نشر دار الكتب المصرية ١٩٣٠
٤٠ – نشر المحاسن الغالية في فضل الصوفية –٢ : اليافعي ،
ابو محمد عبد الله بن اسعد
دار الكتب العربية الكبرى سنة ١٣٢٩
٤١ – وحي القلم –٣ : الرافعي ، مصطفى صادق
المكتبة التجارية الكبرى
٤٢ – هداية العارفين : البغدادي ، اسماعيل باشا البابانى ،
طبعة المعارف الجليلة – تركية ١٩٥١

مخطوطات :

٤٣ ـ سير النبــــلاء : الذهبي ،
مصور مكتبة أحمد الثالث ـ استنبول

٤٤ ـ تاريـخ الاسلام الكبير : الذهبي ،
مصور المتحف البريطاني

٤٥ ـ رسالة في التراجم : مخطوط المكتبة الظاهرية بدمشق
رقم ٤٦١٢

٤٦ ـ الولاة والقضاة في الاسلام : مخطوط المكتبة الظاهرية
بدمشق رقم ٤٦١٦

٤٧ ـ الوافي بالوفيات : للصفدي ،
مصور طبوقسرائي . استنبول .

فهرس الأعلام

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(ش)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

فهرس الموضوعات

ملحق

رسالة الشيخ عز الدين بن عبد السلام الى السلطان الملك الأشرف في الردّ عليه[1]

بسم الله الرحمن الرحيم . فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ . أما بعد حمداً لله الذي جلت قدرته وعلت كلمته ، وعمت رحمته ، وسبقت نعمته ، فان الله تعالى قال لأحب خلقه اليه وأكرمهم لديه : وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، إِنْ يَتَّبِعونَ إِلاَّ الظَّنَّ ، وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ . وقد أنزل الله كتبه وأرسل رسله لنصائح خلقه ، فالسعيد من قبل نصائحه ، وحفظ وصاياه ، وكان فيما أوصى به خلقه ، أن قال : يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ . وهو سبحانه وتعالى

---

(١) لقد أوردنا رسالة الملك الاشرف في قصة فتنة الحنابلة . ورأينا ان نثبت النص الكامل لرسالة الشيخ العز هنا في الملحق لأهميتها .

أولى من قبلت نصيحته ، وحفظت وصيته . وأما طلب المجلس وجمع العلماء فما حملني عليه إلا النصح للسلطان وعامة المسلمين ، وقد سئل رسول الله ﷺ عن الدين ، فقال : الدين النصيحة ، قيل : لمن يا رسول الله ! قال : لله ، ولكتابه ، ورسوله ، وأئمة المسلمين وعامتهم. فالنصح لله : بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، ولكتابه : بالعمل بواجبه ، ولرسوله : باتباع سنته ، وللأئمة : بارشادهم الى أحكامه ، والوقوف عند أوامره ونواهيه ، ولعامة المسلمين : بدلالتهم على ما يقربهم اليه ويزلفهم لديه ، وقد أديت ما عليّ في ذلك .

والفتيا التي وقعت في هذه القضية ، يوافق عليها علماء المسلمين من الشافعية والمالكية والحنفية والفضلاء من الحنابلة ، وما يخالف في ذلك إلا رعاع لا يعبأ الله بهم . وهو الحق الذي لا يجوز دفعه ، والصواب الذي لا يمكن رفعه . ولو حضر العلماء مجلس السلطان لعلم صحة ما أقول . والسلطان أقدر الناس على تحقيق ذلك ، ولقد كتب الجماعة خطوطهم بمثل ما قلت ، وإنما سكت من سكت في أول الامر لما رأى من غضب السلطان ، ولولا ما شاهدوا من غضب السلطان لما أفتوا أولاً إلا بما رجعوا اليه آخراً . ومع ذلك فتكتب ما ذكرته في الفتيا وما ذكره الغير ، وتبعث به الى بلاد الاسلام ليكتب فيها كل من يجب الرجوع اليه ، ويعتمد في الفتيا عليه . ونحن نُحضر كتب العلماء المعتبرين ليقف عليها السلطان.

وبلغني أنهم القوا الى سمع السلطان أن الاشعري يستهين بالمصحف ، ولا خلاف بين الاشعرية وجميع علماء المسلمين ، أن تعظيم المصحف واجب ، وعندنا أن من استهان بالمصحف أو بشيء منه فقد كفر ، وانفسخ نكاحه ، وصار ماله فيئاً للمسلمين ، ويضرب عنقه ، ولا يغسل ، ولا يكفن ، ولا يصلى عليه ، ولا يدفن في مقابر المسلمين ، بل يترك بالقاع طعمة للسباع .

ومذهبنا أن كلام الله سبحانه قديم أزلي قائم بذاته ، لا يشبه كلام الخلق كما لا يشبه ذاته ذات الخلق ، ولا يتصور في شيء من صفاته أن تفارق ذاته ، إذ لو فارقه لصار ناقصا ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيرا . وهو مع ذلك مكتوب في المصاحف ، محفوظ في الصدور ، مقروء بالالسنة ، وصفة الله القديمة ليست بمداد للكاتبين ولا الفاظ اللافظين ، ومن اعتقد ذلك فقد فارق الدين وخرج عن عقائد المسلمين . بل لا يعتقد ذلك إلا جاهل غبي ، وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون .

وليس ردّ البدع وإبطالها من باب إثارة الفتن ، فان الله سبحانه أمر العلماء بذلك ، وأمرهم ببيان ما علموه ، ومن امتثل أمر الله ونصر دين الله ، لا يجوز أن يلعنه رسول الله ﷺ .

وأما ماذكر من أمر الاجتهاد والمذهب الخامس ، فأصول الدين ليس فيها مذاهب ، فان الاصل واحد ، والخلاف في الفروع ،

ومثل هذا الكلام مما اعتمدتم فيه قول من لا يجوز أن يعتمد قوله ، والله أعلم بمن يعرف دينه ويقف عند حدوده ، وبعد ذلك فانا نزعم أنا من جملة حزب الله وأنصار دينه وجنده ، وكل جندي لا يخاطر بنفسه فليس بجندي .

وأما ما ذكر من باب السلامة فنحن تكلمنا فيه بما ظهر لنا من أن السلطان الملك العادل رحمه الله تعالى إنما فعل ذلك إعزازاً لدين الله تعالى ونصرة للحق ، ونحن نحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .



تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٠	٩	مزَق	مزقا
٤٧	١٠	دروساً	دروس
٥١	٦	والد	ولد
٥٦	١٤	الحنبلي	المالكي
١٠٥	٧	فلا يشك	فلا يشك في
١٥٥	٩	سجر	سحر
١٥٧	١٥	سلطان	سلطانا

استدراك

جاء في الصفحة ٢١ في السطر الأخير من الحاشية : «انظر فهرس الكتب العربيـــة للمكتبة المذكورة» والصحيـح : انظر Garrett Colection of Arabic Manuscript للمكتبة المذكورة .

دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر
مؤسسة ثقافية تعمل على نشر نفائس الكتب القديمة والحديثة
دمشق - ص.ب ٩٦٢ - هاتف : ١١٠٤١

دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر

دمشق : هاتف ١١٠٤١ - ص.ب ٩٦٢

وكلاء التوزيع
في القاهرة : مكتبة دار العروبة
في بغداد : مكتبة المثنى

مطابع دار الفكر بدمشق